جهود الشيخ محمد الغزالي في الدعوة الإسلامية ومواجهة الأفكار الوافدة

دراسة تحليلية وصفية

Milestones of Sheikh Muhammad Al-Ghazali's efforts in the Islamic call and confronting incoming ideas Descriptive Analytical Study

م.م.د. عبدالرحمن طه بديوي

ديوان الوقف السني/ الفلوجة

Assist. D. Eabdalrahman tah badiwi

rahmanalalwany@yahoo.com

الملخص

لما كان حال الأمة الإسلامية في تراجعٍ عن موقع الصدارة بين الأمم، فقد غاب تأثيرها من حركة العالم، ثم عثّرها في سيرها لطريق نهضتها تكالب دول العالم عليها بسلاح الغدر والخيانة، وإهمال الأمة لسلطانها، وقد مرّ على هذه الحال أجيال متعاقبة وهي في طي الإهمال أو تَعَمُّدِه، والمسلمون غارقون بشعارات برّاقة خالية من محتوى الحقيقة ومضمون الإيمان، يلتهون بمشروعات عمل خدّاعة تزعم نهضة الأمة وإعادة مجدها، وربما يرجع سبب هذه الحالة إلى الغفلة التي أورثها جيل الأجداد لجيل الأحفاد في عصر تدهور الأمة وانحطاطها، فورّثوهم فكراً عتيقاً جامداً، فكان إهمالُ الآباء وكسلُ الأبناء وخداعُ الأمم الغالبة وعجزُ العلماء إلا من رحم ربي سبباً لانحدار الأمة إلى ما هي عليه.

لكن من رحمة الله تعالى لهذه الأمة أن هيَّأ صنفاً من العلماء تميّز بأنه يدرك تماماً حقيقة الموقف للقضية والمشكلة في الأمة الإسلامية، وهو يحس الأذى ويستشعر المصاب، ويدرك حقيقة المطلوب، كل هذا يثير فيه تحمل مسؤولية التوعية الدينية والفكرية تجاه أبناء أمته، فمن هنا أخذ المصلحون الاجتماعيون ورجال الفكر في الإسلام على عواتقهم مهمة الانتفاضة الفكرية من أجل الصحوة الإسلامية.

ولقد كان الشيخ محمد الغزالي أحد هؤلاء الأعلام الذين خاضوا سبيل النهضة بالدعوة إلى الله ومواجهة الأفكار الوافدة والتصدي للتيارات التي تغزو العالم الإسلامي، فحاز بعمله وعلمه مكانةً مرموقة في مصاف المصلحين الاجتماعيين، ومبلغاً واسعاً في عداد المفكرين المسلمين.

حاول الباحث في هذا البحث تسليط الضوء على معالم من سيرة الشيخ محمد الغزالي وجهوده في الدعوة إلى الله ومواجهة التيارات والأفكار الوافدة بالبيان والتمحيص والرد.

الكلمات المفتاحية: الغزالي، دعوة، قضايا.

Abstract

When the state of the Islamic Ummah is in retreat from the position of leadership among nations، its influence has disappeared from the movement of the world، and then it has stumbled in its course of its path of renaissance. It was deliberately done، and Muslims are immersed in flashy slogans devoid of the content of truth and the content of faith، playing with deceptive work projects claiming the nation's renaissance and restoring its glory، and perhaps the cause of this situation is due to the negligence that the grandparents' generation bequeathed to the grandchildren in the era of the nation's decline and decline. The laziness of children، the deceit of the dominant nations، and the inability of scholars except for those whom my Lord has mercy is a reason for the nation's decline to what it is.

But it is from the mercy of God Almighty to this nation that he has prepared a class of scholars who are distinguished by being fully aware of the reality of the situation of the issue and the problem in the Islamic nation، and he senses harm، feels injured، and realizes the reality of what is required. Social reformers and intellectuals in Islam have the task of an intellectual uprising for the sake of Islamic awakening.

Sheikh Muhammad Al-Ghazali was one of those figures who embarked on the path of the Renaissance by calling to God، confronting incoming ideas and confronting the currents that invade the Islamic world. With his work and his knowledge، he won a prominent place in the ranks of social reformers، and a large sum among the Muslim thinkers. In this research.

In this research، the researcher tried to shed light on features from the biography of Sheikh Muhammad Al-Ghazali and his efforts in calling to God and confronting currents and incoming ideas with statement، scrutiny and response.

Keywords: Al-Ghazali، call، issues.

أولاً: المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله نبي الرحمة إمام الهدى، ورضوان الله تعالى عن صحابته الذين آمنوا به ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه وبذلوا الغالي والنفيس لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه فكانوا خير أصحاب وأولئك هم المفلحون، أما بعد:

فمما لا يخفى أن ضوء النهار لا تعمى عنه الأبصار، ويكشف المستور والمخفي، فالحقائق واضحة بيِّنة لكن قليلون هم الذين يلتفتون إليها، وإذا انقطعت سبل الإحساس عن الأبصار، غاب الوعي حتماً، فتغلب العادة قوى الفطرة، لضعف الفكرة في حيز التفكير والعمل، فليس العيب في الضوء والنور والضياء، ولا في الفكرة وطريقة التفكير وفقاً لها، بل في الظروف التي أحاطت بالفكرة حتى تمّ فهمها خطأً أو التغافل عنها كسلاً أو تآمراً.

ولما كان حال الأمة الإسلامية في تراجعٍ عن موقع الصدارة بين الأمم، فقد غاب تأثيرها من حركة العالم، ثم عثّرها في سيرها لطريق نهضتها تكالب دول العالم عليها بسلاح الغدر والخيانة، وإهمال الأمة لسلطانها وتمكين الكفار من اغتصاب كيانها، وقد مرّ على هذه الحال أجيال متعاقبة وهي في طي الإهمال أو تعمد الإهمال، والمسلمون غارقون بشعارات برّاقة خالية من محتوى الحقيقة ومضمون الإيمان، يلتهون بمشروعات عمل خدّاعة تزعم نهضة الأمة وإعادة مجدها، حتى صارت القضايا المصيرية ضرب من الخفاء على الأجيال الوليدة، بل تكاد تنسى، وصار الأحفاد يسألون عن الأمة الإسلامية التي يتكلمون باسمها، ويعرفون أنها نسبهم العريق، كالذي يعرف جده ولم يحس بأثره فيه، غير أثر النسب والتكاثر، فيسألون: ما قضية الأمة الإسلامية ؟وما مشكلتها؟ وكيف تعالج القضية والمشكلة بعد إدراكها؟

والسبب في هذا السؤال ليس لعيبٍ في السائل ولا لتقصير، بل يرجع إلى الغفلة التي أورثها جيل الأجداد لجيل الأحفاد في عصر تدهور الأمة وانحطاطها، فأورثوهم فكراً عتيقاً جامداً، بل ربما أهمل جيل الآباء أيسر شؤون هذا الموروث الديني من نفوس أبنائهم كالصلاة مثلاً، فلم يكن يكترث الأب المربي لمعاني العقيدة وأثرها في تربية النفوس وبناء الشخصية الإسلامية، وربما كان أيسر أن يعلم ولده بأن الإسلام دين رب العالمين الذي اختاره للإنسان كي يفكر به ويعتقده، وأن يسيّر به أعماله ويرعى به شؤونه، فكان إهمالُ الآباء والأجداد وكسلُ الأبناء وخداعُ الأمم الغالبة وعجزُ العلماء إلا من رحم ربي سبباً لانحدار الأمة إلى الحضيض، فصار اسم الأمة الإسلامية خاليا مما نسبت إليه، لأن الجامع بينها أضحى خيطاً رفيع يمسك

أطرافها ولا تحمل مسماه أيُّ حقيقة، وصارت صورة الأمة الإسلامية خالية من الحيوية، جامدةً لا روح فيها، تتحرك حركة غريزية بدافع الفطرة.

لكن الله تعالى هيّأ صنفاً من العلماء يدرك تماماً حقيقة الموقف للقضية والمشكلة في الأمة الإسلامية، وهو يحس الأذى ويستشعر المصاب، ويدرك حقيقة المطلوب، وتنبض عروق قلبه من أعماقه بالموروث الحسي للدين العتيق وقراءة قرآنه ومعرفة سنة نبيه ﷺ، كل هذا يثير فيه دواعي المسؤولية وتحمل مسؤولية التوعية الدينية والفكرية تجاه أبناء أمته، مما يثقل كاهله ويحزن نفسه طالباً الجواب والحل، وساعياً في سبيل النهضة للأمة، فيرى أن مشكلة الأمة واضحة تماماً، ولكن الإهمال أورثها الجمود في التفكير، ومخطط أعدائها أورثها التجهيل المقصود، وجعلها تشتغل بغير المطلوب وبخاصة أن المشاكل تأزمت، والقضايا تعقدت، وأصبحت الأمة تعيش الفرقة والتفكك والانحطاط.

فمن تشخيص الواقع الإسلامي المتردي ومعرفة حال النفوذ الإسلامي الضعيف في المنطقة ندرك تماماً أهمية أن يُلِم المسلمون بقضايا عصرهم وواقعهم، فمن هنا أخذ المصلحون الاجتماعيون ورجال الفكر في الإسلام على عواتقهم مهمة الانتفاضة الفكرية من أجل الصحوة الإسلامية، وتجردوا من أعباء الفوضى، والتزموا النشاط العلمي على أتمه بكل رحابة صدرٍ منهم، فعلوا كل ذلك ليصلوا إلى مرامهم ومبتغاهم وهو خدمة دين الله تعالى بكل ما استطاعوا من طاقات وكل ما آتاهم الله تعالى من ملكات ومواهب، مستقصين بذلك جميع المجالات، ومستنفذين كل ما أتيح لهم من وسائل علمية ومعرفية في سبيل نهضة الأمة الإسلامية وعودتها لتمارس دورها الريادي في قيادة شعوب العالم كما كانت في العصور الإسلامية الزاهرة.

ومن هنا جاءت أهمية الشخصيات الإسلامية من روّاد ميدان الدعوة، فعملوا على نشر الوعي والفكر السليم، وحاولوا الرقي بواقع الأمة ومداواة عللها بأدوية مناسبة، وتصدوا كذلك للأفكار الغربية والاستعمارية التي نشرها الغرب بين أبناء الأمة وحاولوا تضليلهم بها، ولقد كان الشيخ الغزالي أحد أهم هؤلاء الأعلام في العصر الحديث.

ثانياً: أهمية البحث وأسباب اختياره:

١- فتور همم الباحثين عن الخوض في مثل هذا النوع من الدراسات.

٢- وجود شخصيات عظيمة في تراثنا الاسلامي جديرة بالدراسة والبحث بغية أن يقتدي بها المسلم في حياته ويحذو حذوها.

٣- أن نسلط الأضواء على التراث العلمي والفكري الضخم الذي تركه مفكر قدير كان له أثر في فكر الكثير من الباحثين والمفكرين والذي يُشكّل مدرسة ثقافية وعلمية وفكرية هي من أنبغ المدارس، وحقٌ لهذا المنهج ولصاحبه أن يخلدا في التاريخ.

ثالثاً: مشكلة البحث:

تسليط الأضواء على شخصية عالم ومفكر انطوت في نفسه مجامع التراث الثقافي الإسلامي بعقلانية الرجل الواعي بثقافة عصره الخبير بما يحتاجه الواقع من مقتضيات تُمثّل علاجاً ناجعاً لمشكلاته، مطلعاً على الثقافة الغربية آخذاً بمحاسنها ونابذاً لتعقيداتها.

وكذلك مما يعنينا في البحث أن نكشف عن الأسلوب العلمي الذي واجه به الغزالي الأفكار والتيارات الوافدة، وكيفية الرد عليها وتفنيدها.

رابعاً: المنهج المعتمد في البحث:

اعتمدت في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي القائم على الاختصار، فهو وصفي من حيث الترجمة للشيخ محمد الغزالي معتمداً في ذلك على ما تيسر لي الاستفادة منه من مراجع تكلمت عن الشيخ، وتحليلي من حيث المناقشة لأهم القضايا التي تناولها الشيخ في مؤلفاته والتي تبلور منها منهجه الفكري بشكل عام.

خامساً: خطة البحث:

قسمت البحث إلى مبحث تمهيد ومبحثين حسب ما يأتي:

التمهيد: التعريف بالشيخ محمد الغزالي السقا، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مولد الشيخ محمد ونشأته وتدرجه في العلم.

المطلب الثاني: مواقف الشيخ محمد الغزالي ووفاته.

المطلب الثالث: الإنتاج العلمي والفكري للشيخ محمد الغزالي.

المبحث الأول: المحاور الدعوية العامة: وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى

المطلب الثاني: عقيدة المسلم وأدلة وجود الله

المطلب الثالث: حقيقة الفكر الإسلامي

المطلب الرابع: منهج الشيخ في دراسة القرآن الكريم والسنة النبوية

المطلب الخامس: قضية الأخلاق في الإسلام

المبحث الثاني: مواجهة الأفكار الوافدة: وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الغزو الثقافي للإسلام

المطلب الثاني: مواجهة التنصير

المطلب الثالث: مواجهة الشيوعية

المطلب الرابع: مواجهة العلمانية

المطلب الخامس: التعامل مع قضايا المرأة

الخاتمة: وتتضمن النتائج.

هذا وإني إذ أتقدم بهذا البحث فإني أعتذر عما به من قصور ونقص وحسبي في ذلك أني قد بذلت جهدي، فما كان فيه من صواب فمن الله وله الحمد، وما كان به من نقص وعيب وخطأ فمني ومن الشيطان وأسأل الله أن يتجاوز عنه برحمته.

المبحث التمهيدي: التعريف بالشيخ محمد الغزالي السقا:

من البديهي حين يتعرض باحثٌ ما لدراسة فكر رجلٍ من رعيل المفكرين الكبار الذين كان لهم أثر واضح في الأمة الإسلامية أن يتصدى بدايةً للتعريف به والتعرف على أحوال حياته.

المطلب الأول: مولد الشيخ محمد ونشأته وتدرجه في العلم.

في قرية بسيطة من قرى محافظة (البحيرة) وهي قرية (نكلا العنب) التابعة لناحية (إيتاي البارودي)، وفي بيت متواضع من بيوتها كانت إرادة الله أن يكون ذاك البيت مهبطاً للعلم والفكر وعلو المنزلة وُلد الشيخ (محمد الغزالي السقا) في الثاني والعشرين من أيلول سنة **١٩١٧**م.

وناحية (إيتاي البارودي) هذه كانت ذات شأن كبير وقدرٍ عالٍ؛ فلقد خرجت الكثير من العلماء والمفكرين الكبار الذين كان لهم الأثر الواضح في النهضة الإسلامية، فكان من رجال هذه الناحية الشيخ محمد عبده، والشيخ محمود شلتوت وغيرهم، حتى أن الشاعر الكبير محمود سامي البارودي كان من أبناء قرية (نكلا العنب).[١]

ولقد سماه والده باسم مركب هو (محمد الغزالي) تيمناً باسم رسول الله ﷺ واسم أبي حامد الغزالي رحمه الله، وكان للشيخ محمد سبعة من الإخوة هو أكبرهم سناً، ولذلك فقد كان الشيخ محط آمال أبيه في عيالة ورعاية الاسرة من بعده، حتى أن أباه كان إذا مرض يقول للعائلة: (لا تحزنوا فقد تركت لكم – بعد الله – محمد الغزالي) فكان الشيخ عند حسن ظن والده به فقام بواجبه نحو الأسرة خير قيام، وكانت أمه امرأةً برةً تقيةً محسنة، تحب الخير وتحثّ أولادها عليه وعلى صلة أرحامهم وأقربائهم.[٢]

فمن ذلك نعلم أن الشيخ قد وُلد وتربى في بيت صلاح وتقوى، وبيئة تحب العلم والعلماء، وتحب الخير وتحثّ عليه مما كان سبباً في حرصه على العلم والاشتغال به.

ولقد تدرّج الشيخ محمد في اكتسابه للعلم مبتدئً بكتّاب قريته كمرحلة أولى لتعلم القراءة والكتابة، فكان من توفيق الله له أن حفظ القرآن وهو ابن عشر سنوات، وبعد ذلك التحق بمعهد الاسكندرية الديني الابتدائي، ثم حصل على الثانوية وانتسب إلى كلية أصول الدين في جامعة الأزهر سنة **١٩٣٧**، وتخرّج منها سنة **١٩٤١**، ثم تخصص في الدراسات العليا في قسم الدعوة، وحصل على درجة التخصص

(١) ينظر: عويس (عبدالحليم)، الشيخ محمد الغزالي تاريخه وجهوده وآراؤه، دار القلم (دمشق)، د/ ط.ت، ص٧.
(٢) ينظر: المرجع السابق ص٧.

– وهي تعادل الماجستير – سنة **١٩٤٣**م.

وفي تلك المرحلة تتلمذ على الشيخ حسن البنّا وتأثّر به كثيراً، وفي سبيل حصوله على بناءٍ فكري قوي ومتين فقد كان الشيخ رحمه الله نهماً في القراءة متعدداً في المواهب، مطلعاً على كل الآفاق الثقافية، حريصاً على التعمق في الثقافة الإسلامية والأدب العربي.

وشغل الشيخ وظيفة الإمامة والخطابة في مسجد (العتبة الخضراء) بالقاهرة، وتدرج في الوظائف الدعوية والإدارية حتى صار وكيلاً لوزارة الأوقاف، ودرّس أثناء حياته في جامعات (الأزهر) بمصر، و(أم القرى) بمكة المكرمة، و(الأمير عبد القادر) بالجزائر، وحضر مئات الندوات والمؤتمرات وناقش وأشرف على كثير من الرسائل العلمية.[١]

المطلب الثاني: مواقف الشيخ محمد الغزالي ووفاته.

كان الشيخ محمد الغزالي سيّال القلم كثير الكتابات، وكان له العديد من المواقف قد حصلت معه أثناء حياته تُمثِل محطات فكرية ومعالم أساسية يمكننا أن نتعرف على شخصيته من خلالها، وتجنباً للإطناب في البحث فإني سوف أذكر بعض تلك المواقف:

١– يعّد الشيخ محمد الغزالي الرجل الوحيد الذي خرجت لأجله المظاهرات مرتين في مصر أيام حياته، فمن المعروف عن الشيخ أنه كان جريئاً في كتاباته ويقول الحق ولا يخاف في الله لومة لائم، ففي أيام عبد الناصر حين وضع الميثاق الوطني، فاعترض الشيخ على الجانب العلماني فيه، فطبعت جريدة (الأهرام) صورة كاريكاتورية ساخرة من الشيخ وعمامته فخرجت مظاهرة غاضبة لأجلها وحطمت واجهة جريدة الأهرام، واضطرت الجريدة للاعتذار، والمرة الثانية في عهد أنور السادات، حين أراد تغيير قوانين الأحوال الشخصية، وتقييد حرية الرجل بمنع تعدد الزوجات، فخرجت أيضاً حشود الناس بتأثير من خطب الشيخ الغزالي، فأوقفت الدولة المشروع.[٢]

٢– كان للشيخ مواقف قوية وجريئة ضد الجماعات المتطرفة؛ لأنه كان يرى أن الإفراط والتفريط سواء في تزييف الإسلام، ووصل الأمر إلى أن اتهم بعضهم الشيخ بمهالأة الحكام والحرص على رضاهم.

٣– كان الشيخ الغزالي رحمه الله سلفي العقيدة، يتبع السلف الصالح من أصحاب رسول الله ﷺ وتابعيهم، ويؤمن بصفات الله تعالى دون تأويل أو تشبيه أو تجسيد، ومع ذلك فقد كان له مواقف واضحة مع من

(١) ينظر: عويس، الشيخ محمد الغزالي تاريخه وجهوده وآراؤه ص٨.
(٢) ينظر: عويس: الشيخ محمد الغزالي تاريخه وجهوده وآراؤه ص٩.

يدعون السلفية ويتطرفون في نظراتهم الجزئية، أو ممن يكفرون الناس لأدنى شبهة ويتمسكون بعض الفرعيات الفقهية ويحاكمون الناس إليها فينفرون الناس من الإسلام.

٤- كان للشيخ رحمه مواقف واضحة ضد الدكتاتورية والإلحاد والعلمانية والاستبداد، وذلك من خلال مؤلفاته وكتاباته، مما أدى به إلى السجن قبل الثورة المصرية التي قامت سنة **١٩٥٢** وبعدها.(١)

ولقد دُعي الشيخ رحمه الله لحضور مؤتمر (الجنادرية) الذي يُعقد في الرياض فكان يعتذر مرات عديدة لظروفه الصحية، وفي سنة **١٩٩٦** أحس وكأن هناك شيءٌ يدفعه لحضور المؤتمر، لم يكن الشيخ يدرِ أن الإكرام الإلهي يريده ليرقد في البقيع، ولقد مرت سنوات كثيرة عاش الشيخ خلالها في مكة المكرمة كان فيها محطَّ إجلال واكرام من الجميع، ولكن كتاب (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث) كان سبباً لتغيير آراء الكثيرين من حوله، ففي ذاك المؤتمر وصل الحد ببعضهم إلى أن خرج عن حدود الأدب والحصافة، فتأثر الشيخ بذلك كثيراً ولم تخرج منه كلمة واحدة تسيء لغيره، فأصيب بأزمة صحية أودت بحياته في **١٩٩٦/٣/٩**م، ودُفن بالبقيع مع طليعة خير أمة أخرجت للناس.(٢)

المطلب الثالث: الإنتاج العلمي والفكري للشيخ محمد الغزالي

تُمثّل كتب الشيخ محمد الغزالي تجربة نفسية واجتماعية وفكرية، ونتيجة واقعية لمعاناة إنسانية، فلم يكن الشيخ الغزالي كغيره من الكُتّاب الذين يؤلفوا كي يقدموا للناس تصورات نظرية أو إرشادات ومواعظ مجردة، بل إن كتاباته تنطلق من الواقع ومن التصور الإسلامي الشمولي، وتلبي حاجات نفسية وفكرية لدى الأفراد والجماعات، فكل كتاب يُمثّل صموداً فكرياً، ويعالج وحدةً موضوعية وفكرية ومقاومةً للهجمات التي يتعرض لها الإسلام.

ومن المعلوم أن الشيخ كان سيّال القلم، فكانت النتيجة الطبيعية هي كثرة التراث الفكري والعلمي الذي تركه الشيخ من بعده، ومن أهم الكتب التي خلّفها الشيخ من بعده والتي زادت عن خمسين كتاباً:

١- أزمة الشورى في المجتمعات الإسلامية.

٢- الإسلام والأوضاع السياسية.

٣- تعصب والتسامح بين الإسلام والمسيحية.

٤- الجانب العاطفي من الإسلام.

(١) ينظر: المرجع السابق ص١٠.

(٢) ينظر: المرجع السابق ص١٤-١٥.

٥- جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج.

٦- حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة.

٧- السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث.

٨- ليس من الإسلام.

٩- قذائف الحق.

١٠- المحاور الخمسة للقرآن الكريم.

وغيرها الكثير من الكتب وقد طُبعت جميعها، إضافة إلى بعض الكتب التي طبعت بعد وفاة الشيخ من تسجيلاته ودروسه وخطبه.

ولقد أُلِّفت عن الشيخ بعض الكتب التي جمعت بعض آرائه ككتاب (الشيخ الغزالي كما عرفته) للشيخ يوسف القرضاوي، وكتاب (الشيخ محمد الغزالي تاريخه وجهوده وآراؤه) للدكتور عبد الحليم عويس، وغيرها

المبحث الأول: المحاور الدعوية العامة

تعرض الشيخ في كتاباته للكثير من القضايا التي كان لها أثر واضح في حياة المسلمين، فما من قضية تتصل بحياة المسلمين في العصر الحاضر إلا وقد جرى فيها قلم الشيخ رحمه الله، لذا فإن الإحاطة الكاملة بتلك القضايا من العسر بمكان، ولهذا فإني سوف أقتصر في دراستي هنا لما هو – برأيي – أهم القضايا التي تكلم فيها الشيخ.

المطلب الأول: الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى:

لا نكون مبالغين إذا قلنا أن الشيخ الغزالي كان واحداً من أهم الدعاة في تاريخ الدعوة بأكمله، فقد كان للشيخ باعاً طويلاً ومهماً جداً في هذا المجال، حتى أن الذين خالفوه في وجهات نظرهم كانوا يعترفون بمكانة الشيخ الدعوية، حتى وإن كان بعضهم يقصد بكلامه هذا التقليل من أهمية الآراء الاجتهادية التي قال بها الشيخ، ولكن بغضّ النظر عن المآرب فإن الشيخ رحمه الله تكلّم في الأطر العامة والقضايا الاجتهادية والإصلاحية التي تهمّ كبار المصلحين، والتي تُمثّل ما يمكن أن نسميه السياسة العامة التي تستطيع معالجة الأوضاع، ومواجهة المشكلات الطارئة، لذا فالشيخ الغزالي داعية، لكنه داعية تقوم دعوته على القرآن والسنة والفقه، وهذا الفقه هو الفقه العام بالإسلام، وفقه بالعصر ومقتضياته، وبمشكلات

المسلمين والحلول الناجعة لها.

ويرى الشيخ الغزالي أنه في زحمة الأفكار والمناهج الوافدة من الخارج، وفي ركام الهزائم والمصائب التي توالت على المسلمين في الداخل، لم يكن أمام الدعاة إلى الله إلا مسلك واحد، وهو أن يُبرزوا الجوانب المستخفية من تعاليم الإسلام، حتى يستبين لكل ذي عينين أنه دين يجعل السيادة للأمة لا لفرد مُمَلَّك حمل على رأسه التاج، وأنه يشيع خير الله بين عباد الله، فلا يجعل المال دولة بين طائفة من المترفين الذين ورثوا أملاكهم أم جمعوها في نهزة من تفاوت الفرص.(١)

وربما وُصِف بالدعوة بعض الوعاظ الذين يرققون القلوب، ويُذكّرون بالخير ويعينون على العبادة، وهذا وصف يصحّ على ضرب من التجوّز؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتخوّل أصحابه بالموعظة مخافة السآمة عليهم، لكن شأن الدعوة أوسع مكاناً وزماناً من هذا النصح المؤثر البليغ.(٢)

ويرى الشيخ أن الأصل في الدعوة هو الفكر والإقناع وليس القهر والإكراه، لذا فالشيخ يردّ على الذين يقولون بأن آيات الدعوة بالحسنى والحكمة والموعظة الحسنة منسوخات بآية السيف، ويؤكد الشيخ بأن كلامهم هذا لا رصيد له من الصحة.(٣)

ويرى الغزالي أن هناك شروطاً لا بد منها في الداعية إلى الله، ويجب على دعاة كل عصر أن يتخلّقوا بها وهي:

١- الصلة بالله، وهي الدعامة الأولى في أخلاق الدعاة؛ إذ كيف تدعو إلى أحد صِلاتُك به واهية ومعرفتك له قليلة، وهكذا لا يُفهم كيف يتصدّى للدعوة إلى الله والأخذ بصراطه مَن لا يعرف الله ولا يدري صراطه.

٢- إصلاح النفس، وهذا جهد لا ينبغي أن ينفكّ عنه جهد مسلم، وهو بالدعاة ألصق.

٣- دقة الفهم للدين والدنيا، فالداعية الحصيف رجلٌ يُشخّص العلة التي أمامه، ويهيئ لها الدواء المناسب من كلام الله ورسوله.(٤)

ويرى الشيخ محمد الغزالي أن مرتكزات الفقه الدعوي أعظمها القرآن الكريم، ثم السنة النبوية، ثم التاريخ الإنساني كرصيد يغترف منه الداعية، ثم الثقافة الإنسانية العامة والدينية الخاصة، ثم المعايشة للواقع المحلي، وأخيراً المعرفة الرشيدة، وأن الداعي بدون عقل علمي وبدون وعي بمقارنة الأديان

(١) ينظر: محمد الغزالي، في موكب الدعوة، دار نهضة مصر، ط٤، ٢٠٠٥م، ص٣.
(٢) ينظر: محمد الغزالي، الدعوة الإسلامية في القرن الحالي، دار الشروق، ط١، ١٤٢١ه، ٢٠٠٠م، ص١٠.
(٣) ينظر: محمد الغزالي، جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج، دار نهضة مصر، د/ ط، ٢٠٠٥م، ص١٨.
(٤) ينظر: محمد الغزالي مع الله دراسات في الدعوة والدعاة، دار نهضة مصر، ط٦، ٢٠٠٥م، ص١٤٩-١٥٥.

ومعرفة ما عند الآخرين وتقديم حقائق الإسلام تقديماً عقلياً يقبله إنسان الغرب، بدون هذا كله لا يمكن أن ينجح الداعية في رسالته.(١)

فمما تقدم يتبين لنا أن الشيخ حرص على إعطاء الدعوة مكانها الكريم، وحرص في الوقت نفسه على أن تكون وسائل الدعوة شريفة كالدعوة نفسها، فطبيعة ديننا ترفض أن يُتوصل إلى الغاية الكريمة بوسائل رديئة، كما هو الشأن عند اليهود ورجال الكنيسة الذين يستبيحون كل شيء في سبيل أهدافهم التي لا نعتقد أن لها صلة بحقائق الأديان، بل الأمر فيها أقرب إلى الصراع الدنيوي الذي يمضي بلا دين ولا خلق، ولهذا كانت للشيخ وقفات ضد كل المتشددين والجزئيين والحرفيين الذين يضيعون الحقائق الكبرى.

ولقد طاف الشيخ كثيراً من بلدان العالم حتى أمريكا وأوربة داعياً إلى الله، عاملاً على رأب الصدع بين المسلمين، محاولاً توحيد فكرهم وصفوفهم، محيياً لفريضة الأخوة الإسلامية التي انتشر بها الإسلام أول الأمر.(٢)

المطلب الثاني: عقيدة المسلم وأدلة وجود الله:

لقد كان للشيخ محمد الغزالي آراء راسخة في مجال علم العقيدة والكلام، وكان يرى أنه من المؤسف أن الإسلام وهو أليق الأديان بالعصر الحاضر، وأقدر الأديان على قيادة الإنسانية، وفي تعاليمه إشباع حقيقي للعقل والضمير، لكن المأساة أن الذين يعملون به يصدّون عنه؛ لأنهم يُسيئون فهمه، ومن هنا كان حرص الشيخ الغزالي شديداً على عرض علم الكلام والعقيدة عرضاً جديداً، يُصَوِّر من خلاله عقائد الإسلام من القرآن الكريم والسيرة العطرة.

وكان الشيخ يرى أن تعليم العقائد الإسلامية يجب أن يقوم على انتقاء عدة فصول من كتابَي «العلم يدعو إلى الإيمان» و «الله يتجلى في عصر العلم» مع ضميمة حسنة من الآيات والسنن تعرض أركان الإيمان على منهج السلف، بأن توضع الفصول العلمية تحت الآيات القرآنية التي تتحدث عن الكون والإنسان، وتربط الأديان بالنظر في هذا الملكوت.(٣)

يرفض الشيخ الغزالي النظريات الكلامية التي خلفتها لنا حرب الجدل بين الفرق، ولقد نقد الشيخ هذه الفرق من خوارج ومعتزلة ومرجئة(٤)، وكما أدان الشيخ هذه الفرق الكلامية وأدان الانشغال بها

(١) ينظر: عويس، الشيخ محمد الغزالي تاريخه وجهوده وآراؤه ص٥٢.
(٢) ينظر: عويس، الشيخ محمد الغزالي تاريخه وجهوده وآراؤه ص٥٣.
(٣) ينظر: محمد الغزالي، مستقبل الإسلام خارج أرضه كيف نفكر فيه، دار الشروق، ط٢، ٢٠٠٣م، ص٧٠.
(٤) ينظر: عزام (محفوظ)، صور من حياة مجتهد عظيم، (دراسة حول العقيدة الإسلامية في فقه الشيخ الغزالي)، دار

على حساب تجلية العقيدة الإسلامية من خلال إبداع الله في الكون والإنسان والحياة، كذلك أدان الشيخ انشغال بعض المتعصبين بالتقليل من شأن بعض المفكرين المسلمين، أو تكفير بعض الفرق أو الأشخاص ممن يخالفهم المتعصبون، وقد دعا المسلمين السلفيين وغيرهم إلى الكف عن تجديد المعارك بين الموتى، وللكف عن اجترار الخلافات القديمة.(١)

ويقدم الشيخ عقيدة التوحيد صافية نقية، بلا تجسيد لله أو تشبيه أو تأويل أو تعطيل لصفاته، ويتساءل قائلاً: كيف يدرك عالم الغيب من يجهل عالم الشهادة؟ وكيف يحاول الغرور البشري اكتشاف الذات أو الصفات العليا؟

ويقدّم الشيخ نموذجاً للمنهج السليم الذي اعتمده في دراسة العقيدة، فيثبت وجود الله من خلال أربعة أدلة:

أ- دليل الإبداعي: الإنسان لم يخلق نفسه، ولم يخلق أولاده، ولم يخلق الأرض التي يدرج فوقها، ومن المقطوع به كذلك، أن شيئا لا يحدث من تلقاء نفسه، فلم يبق إلا الله قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ، أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [سورة الطور: ٣٥-٣٦].

ب- دليل العناية: بمعنى أن الترتيب الموجود في هذا الكون لم يتم وحده، وأن هذه الإعداد النافع لابد قد نشأ عن تقدير وحكمة، وأشرف عليه فاعل يعرف ما يفعل، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [سورة الفرقان: ٦١-٦٢].

ج- دليل الحركة: فحوى هذا الدليل هو النظر في الكواكب السيارة والأجرام السماوية والفلكية، والتي تلتزم مداراً واحداً لا تنحرف عنه يميناً ولا يساراً، وتلتزم سرعة واحدة لا تبطئ فيها ولا تعجل، ثم ترتقبها في موعدها المحسوب فلا تختلف عنه أبداً، فمن هيمن على نظامها وأشرف على مدارها؟ بل من الذي أمسك بأجرامها الهائلة، ودفعها تجرى بهذه القوة الفائقة؟ إنها لا ترتكز في علوها إلا على دعائم قدرة عظيمة، تلك هي قدرة الله سبحانه، يقول الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ، لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة يس: ٣٨-٤٠].

الصحوة للنشر بالقاهرة، د/ ط، ١٤١٣ه، ص٨٨.

(١) ينظر: محمد الغزالي، سر تأخر العرب والمسلمين، دار الصحوة للنشر بالقاهرة، ط١، ١٩٨٥م، ص٦٩.

د- دليل الحدوث: لا شك أن لوجود كل واحد منا بداية معروفة، وعناصر الكون الذي نعيش فيه كذلك، وغير معقول أن يتطور العدم إلى وجود تطوراً ذاتياً، إنه إذا وقعت حادثة لم يدر فاعلها قيل: أن الفاعل مجهول ولم يقل أحد قط أنه ليس لها فاعل، فلا بد من محدث وهو الله تعالى.(١)

وتعليم العقائد يستند برأي الشيخ إلى دعامتين أساسيتين هما القرآن الكريم والعلم الحديث، ويثبت الشيخ محمد الغزالي أن التوحيد قانون الوجود ونظام الحياة، فلا يستقيم الوجود إلا بإله واحد، وليس لشيء في الأرض أو السماء وجود من ذاته، بل الوجود كله من الله سبحانه، ووحدانية الله تعالى حقيقة أزلية أبدية، وكذلك افتقار العالم أجمع إليه من العرش إلى الفرش.(٢)

المطلب الثالث: حقيقة الفكر الإسلامي:

من المعلوم أن الجانب الأكبر في تراث الشيخ محمد الغزالي يتمثّل في الكتب الفكرية التي أغنى بها الأمة الإسلامية، لذا فقد كان من أخبر الناس بحقيقة الفكر ومعانيه وأبعاده، فكان يرى أن الفكر الإسلامي هو صنعة المسلمين العقلية في سبيل الإسلام وبمشورةٍ من مبادئه، لذا فهو يختلف عن الإسلام بأنه مستحدث وغير معصوم، وكأن الفرق بينهما كالفرق بين ما لله وما للإنسان، فما دام فكراً إنسانياً فالاختلاف ألصق مظاهره.(٣)

ويُؤرّخ الشيخ للفكر الإسلامي بابتداء المسلمين أن يكونوا أصحاب علم وصناعة، فقبل تلك الفترة كانت الأمية هي الصفة الغالبة، وكان القُرّاء قليلين، وبعد توسع الدولة الإسلامية واختلاط المسلمين بغيرهم وُجدت الضرورات التي تملي على المسلمين أن يُدوّنوا علومهم، فاحتاجوا إلى وضع التفاسير وتقييد الحديث مخافة ضياعه، واحتاجوا إلى معرفة أحوال الأسانيد، واستخراج الأحكام من الأدلة، واحتاجوا إلى تبيين العقائد وتجريدها للمخالفين، وفي تلك الفترة ومع وجود تلك العلوم بدأت بذرة الفكر الإسلامي تنمو شيئاً فشيئاً، والشيخ الغزالي يرى أن هذه العلوم تُعدّ الجذور الحقيقية للفكر الإسلامي، وهي التفسير والحديث وعلم الأسانيد والفقه والعقيدة.(٤)

والأصل العام الذي قام عليه الفكر الإسلامي هو الاجتهاد، وهو مبدأ بنّاء ومبدأ حركة وحرية وتيسير،

(١) ينظر: محمد الغزالي، عقيدة المسلم، دار نهضة مصر، ط٤، ٢٠٠٥م، ص١٣-١٥، ومحمد الغزالي، الشهادتان، دار نهضة مصر، ط١، د/ ط.ت، ص٩-١٢.
(٢) (١٧) ينظر: عويس، الشيخ محمد الغزالي، تاريخه وجهوده وآراؤه ص٢٥.
(٣) ينظر: محمد الغزالي، ليس من الإسلام، دار القلم (دمشق)، ط٢، ١٤٢٦ه، ٢٠٠٥م، ص١٣٥-١٣٨.
(٤) ينظر: محمد الغزالي، ليس من الإسلام ص١٤٠.

لكن تطور الفكر الإسلامي لم يستمر في اتجاهه الذي سلكه أولاً، بل مال إلى اتجاه آخر، وهو الفكر الأجنبي الذي اقتحم الجماعة الإسلامية في عهد المأمون، فمن هنا قلّت العناية بالمبدأ الذي قام عليه الفكر الإسلامي وهو الاجتهاد، ولُقّحت الاتجاهات الفكرية ببواعث وغايات أخرى، وتسلل ذاك الميل إلى الكثير من النُظّار المسلمين، كالفارابي وابن سينا وابن رشد وأبو بكر بن الصائغ، حتى أن الاصول التي قام عليها الفكر الإسلامي لم تنج من التأثر بالعنصر الدخيل، فمدرسة الاعتزال تأثرت بالفكر الأرسطي الأفلاطوني الحديث، وغيرها كثير وقعوا كلهم تحت التأثير الأجنبي.

ولقد كان المنعرج الأهم في تاريخ الفكر الإسلامي – برأي الشيخ – بنشوء التصوّف الفلسفي، والذي يُعدّ برأيه ترجمة للتنسك، فأصبحت أفعال الإنسان تُقاس بمقياسين، مرة بمقياس الأحكام الفقهية، ومرّة بمقياس التذوق والمحاسبة، فاختصّ هؤلاء المتصوفة بنوع من العلم ليس لأحد غيرهم من أهل الشريعة أن يتكلم فيه.(١)

ولقد كان علم الكلام صاحب النصيب الأكبر من التأثر بالمنقول إلى العربية من الفكر الغربي، فاختلطت مسائل علم الكلام بمسائل الحكمة، واختلطت طريقة علماء الكلام بطريقة الفلاسفة، وحمل هذا الفكر الأجنبي إلى الإسلام الكثير من المفاهيم، كوحدة الوجود الشاملة والحلول والاتحاد والفيض والجدل الصاعد، وزاد الأمر سوءاً بدخول ما يُسمَّى فنّ الطلسمات وهو العلم بكيفيات واستعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثير في عالم العناصر بمعين من الأمور السماوية، واعتنق هذه الافكار بعض المسلمين.(٢)

انتهى تأثير العلوم المنقولة إلى إيقاف مبدأ الحركة في الفكر الإسلامي في القرن السابع، حتى أن مدّعي الاجتهاد في ذاك الوقت مردود على عقبه مهجور تقليده، واضطراب نظم الحكم في البلاد الإسلامية كان له أثر في إثارة الفوضى الثقافية، وهكذا أخذ الفكر الإسلامي ينحدر عن أصالته، ولم يبق الإسلام دين المبادئ التي يُعرف بها الأشخاص، إذ أصبح التقديس للأشخاص الذين تُعرف بهم المبادئ، ولم يبق دين الجماعة، إذ أصبحت الأمة طوائف ذات مذاهب وعقائد شتّى، لكن الأرض لا تخلو من قائم لله بحجة، فما من عصر إلا وفيه من يهيب بالجائر عن الطريق أن يرشد.(٣)

فمن هذا الكلام يتبين لنا أن الشيخ استطاع أن يُقدّم لنا خلاصة تاريخية عن الفكر الإسلامي من حيث

(١) ينظر: المرجع السابق ص١٤٦-١٥١.
(٢) ينظر: محمد الغزالي، ليس من الإسلام ص١٥٣-١٦٠.
(٣) ينظر: المرجع السابق ص١٦٣.

حين نشأته إلى ركوده، وبيّن لنا بطريقة علمية تأصيل الفكر الإسلامي واعتماده على الاجتهاد، ثم كيف تلقّحت مفاهيمه بمفاهيم غربية أدّت به إلى الخروج عن أصالته، لكن لا بد من التجديد دائماً في كل فنّ، لذا فقد وُجد بعض المجددين في ميدان الفكر الإسلامي ممن يرجع إليهم الفضل في إعادة بثّ روح الحياة في الفكر الإسلامي، وتجلية حقائقه وأهدافه وأصالته للناس، مما يدفع الناس إلى التخلّي عن معتقداتهم السابقة، كي يتأملوا في البواعث التي تدفعهم إلى الإسلام، من استراحة نفسية أو استنارة عقلية أو أسبابٍ شخصية أو اجتماعية.(١)

المطلب الرابع: منهج الشيخ في دراسة القرآن الكريم والسنة النبوية:

لقد كان للشيخ محمد الغزالي دراسات عديدة في القرآن الكريم، وكان له تذوقٌ خاص لهذا الكتاب، تنمّ تلك الكتابات عن العقل المنفتح والقريحة ذات الخبرة التي تميّز بها الشيخ الغزالي، فمن هنا كان الشيخ كثير الاستشهاد بالقرآن في كتاباته، بل إن أكثر كتاباته وثيقة الصلة بالقرآن ومنطلقة من منطلقاته، والقرآن – برأي الشيخ – هو من المصادر الأخرى بمنزلة الجذع من فروع الشجرة وثمارها، فكتاب الله تعالى هو قطب الإسلام، ومنه تُؤخذ الصور العامة لما يرضاه الله لعباده في شؤون الحياة، ومناحي تفكيرهم ومعالم سلوكهم.(٢)

ويُعدّ كتاب (نظرات في القرآن الكريم) باكورة ما كتب الشيخ من الكتب التي تدرس محاور القرآن الكريم، وقد تضمّن جملة معارف حسنة عن القرآن المجيد، تضمّنت غراس من الأئمة الأقدمين، وشدّها جميعاً نظام يوائم الأسلوب الذي استحلاه المثقفون اليوم(٣)

ولقد عالج الشيخ في هذا الكتاب قضايا دينية واجتماعية تشغل بال المسلمين خاصةً والعالم عامةً، كقضية الإنسان في القرآن، والألوهية والنبوات والثروة وفساد الأمم، والإعجاز القرآني من الناحية النفسية والعلمية.(٤)

أما كتاب (معركة المصحف في العالم الإسلامي) فيعدّ جهداً رديفاً للجهود المبذولة للدفاع عن المصحف وعن الأمة الإسلامية، فيتناول حاضرَ ومستقبل أمة عاث الاستعمار الثقافي في أرجائها فساداً.

(١) ينظر: محمد الغزالي، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، دار الشروق، ط١، ١٤١٨ه، ١٩٩٨م، ص٩.
(٢) ينظر: محمد الغزالي، ليس من الإسلام ص٢٦-٢٧.
(٣) ينظر: فتحي ملكاوي، العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (الأردن)، ط١، ١٤١٧ه، ١٩٩٦م، ص٢٣٩.
(٤) ينظر: عويس، الشيخ محمد الغزالي تاريخه وجهوده وآراؤه ص٢٧-٢٨.

ومقالات هذا الكتاب استهدفت مناهضة الاحتلال الأجنبي بجميع أشكاله عن طريق ثورة الشعوب، وخلق الأمل في النجاح، وتأسيس الحياة الاجتماعية والسياسية على أصول الإسلام.

ويبرهن هذا الكتاب على أمرين: الأول: أن الإنسان المسلم سيد هذا الكون، وهو مستخلف من عند الله بهذا الحق.

الثاني: أن هذه الحياة الدنيا تمهيد للحياة الأخرى، ففي المصحف كل ما يفتقد إليه العالم من طُهرٍ ورُشد، وهذا ما تفتقده الاشتراكية والشيوعية، وقد ظلَّ المسلمون بهذا القرآن أنضر أهل الأرض عيشاً، وأرقاهم فكراً.(١)

أما كتاب (المحاور الخمسة للقرآن الكريم) فعالج فيه الشيخ أهم القضايا التي أفاض القرآن الكريم بذكرها، وانتهى الشيخ إلى أنها خمسة محاور رئيسية وهي:

١- المحور الأول: توحيد الله (الله الواحد)

٢- المحور الثاني: (الكون الدال على الخالق)

٣- المحور الثالث: (القصص القرآني)

٤- المحور الرابع: (البعث والجزاء)

٥- المحور الخامس: (التربية والتشريع)

وكذلك كتاب (كيف نتعامل مع القرآن الكريم) فقد كان الثمرة التي جاءت نتيجة مدارسة لفهم القرآن الكريم وقضاياه وتفسيره وتطبيقه وعلاقته بعلوم المسلمين قديماً وحديثاً، وكونه المصدر الأول لثقافة المسلمين.

وتكمن هذه الأهمية للكتاب في أنه محاولة لتصحيح كثير من المفاهيم المتعلقة بالتعامل مع القرآن في الموضوعات الإسلامية كخطوة أولى تُؤسس الوعي المنهجي الإسلامي المعاصر.

فكان هذا الكتاب بحقّ تتويجاً رائعاً لرحلة الشيخ محمد الغزالي مع القرآن، وتناول عدّة قضايا يجب أن تدخل في صميم علوم القرآن، منها تقنيات الحفظ، والمناهج التراثية في فهم القرآن، والسنن القرآنية والفقه الحضاري، وشمول الرؤية القرآنية للكون المادي والمعنوي، ومحاور القرآن وتقصير المسلمين في إدراكه، ومنهج القرآن في تغيير الأفكار والنفوس، وغيرها الكثير من المسائل المهمة التي تتصل بعلوم القرآن

(١) ينظر: محمد الغزالي، معركة المصحف في العالم الإسلامي، دار نهضة مصر، ط٥، ٢٠٠٥م، ص١٩، وعويس: الشيخ محمد الغزالي تاريخه وجهوده وآراؤه ص٢٨.

اتصالاً وثيقاً.(١)

وكتاب (نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم) قدّم الشيخ دراسة جيدة تهدف إلى تفسير موضوعي لكل سورة من سور القرآن الكريم، يتناول السورة بأكملها، ويحاول رسم صورة لها تتناول أولها وآخرها وتتعرف على الروابط الحقيقية التي تشدّها إلى بعضها البعض، حيث تجعل أولها تمهيداً لآخرها وآخرها تصديق لأولها.

فهذه رحلة الشيخ رحمه الله مع القرآن الكريم، ولقد حاول الشيخ من خلال كتاباته هذه أن يضع منهجية جديدة تجمع بين الموروث القديم والمطلوب الحديث، كاشفةً بأسلوب علمي متمكن مثقف رفيع المستوى ما يقدمه القرآن من القيم المطلقة، ضابطة لمسيرة الحياة في إطار التكامل الذي يضع المعالم لكنه لا يمنع الاجتهاد.

لقد وضع القرآن الإنسان في المناخ العلمي والنفسي والأخلاقي الذي يتيح له التعامل الصحيح مع الحقائق العلمية والاجتماعية والكونية، ولقد انطلق المسلمون في العصور الأولى من القرآن الكريم فقادوا الحضارة ولولا المنهج القرآني الذي يحضّ على الرقيّ بالأمم لما ظهر العلم الحديث، ولما ظهرت حركات التجديد والإصلاح في النصرانية البروتستانتية خاصةً وفي الفكر الأوربي بصفةٍ عامة.(٢)

ولم ينفصل الشيخ محمد الغزالي في مسيرته العلمية والفكرية من أن ينهل من منابع السنة، إذ كان مدركاً لأهمية هذا الجانب من الدين ومكانته، ويعتقد الشيخ أن الأحكام التي توجد في الأحاديث الصحيحة إنما هي مأخوذة ومستنبطة من القرآن الكريم، استنبطها النبي صلى الله عليه وسلم بتأييد إلهي وبيان رباني، لذلك يجب علينا قبولها والعمل بها بشرط ثبوتها عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا الفهم يُسمّى تارة (تبييناً) وتارة (إراءة)، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل: ٤٤]، وما من شكّ في أن السنة هي الركن الثاني في الدين، وهي المصدر الذي يلي القرآن في التشريع، وما تواتر منها فله حكم القرآن في وجوب العمل به، وما صحّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لزمنا قبوله وأنزلنا منزلته في الاستدلال والحكم.(٣)

و(كتاب السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث) كان إنصافاً من الشيخ الغزالي للسنة النبوية، وذوداً عنها أمام القاصرين وذوي العقول الكليلة، وفي الكتاب توجيه للذين يتناولون كتب الأحاديث النبوية

(١) محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن الكريم، دار نهضة مصر، ط٧، ٢٠٠٥م.
(٢) ينظر: عويس، الشيخ محمد الغزالي تاريخه وجهوده وآراؤه ص٣٤.
(٣) ينظر: محمد الغزالي، هذا ديننا، دار الشروق، ط٥، ١٤٢١ه، ١٩٩٦م، ص٢٠٧.

وهم يحسبون أنهم أحاطوا بالإسلام علماً بعد قراءة عابرة، وفي الكتاب دروس للذين أخذوا من الإسلام قشوره ونسوا جذوره.

ساهم الشيخ محمد الغزالي في إثارة النقاش حول مناهج فهم السنة النبوية، وكان له أثر كبير عند كثير من المسلمين الذين رُدّت إليهم حلاوة الإيمان بعد أن انزاح عن كاهلهم الأفهام المغلوطة والأحكام الصارمة التي لا أساس لها من سند أو دليل.

يؤكد الشيخ رحمه الله تعالى على الشروط الخمسة التي وضعها علماء السلف الصالح لقبول الأحاديث وهي: ١- اتصال السند ٢- عدالة الرواة ٣- ضبط الرواة ٤- عدم الشذوذ ٥- عدم العلة القادحة، ولقد توفّر للسنة المحمدية علماء أولو غيرة وتقوى بلغوا بها المدى، وكانت غربلتهم للأسانيد مثار الثناء والإعجاب، ثم انضمّ إليهم الفقهاء في ملاحظة المتون، واستبعاد الشاذ والمعلول منها.(١)

يقول الشيخ محمد الغزالي: «ونحن نأسف لأن كثيراً من المسلمين لم يُحسنوا فهم السنة... ولم يتبعوا السلف الصالحين في هذا النهج البيّن الذي اقتفيناهم نحن فيه، فترى بعضهم لغفلته عن القرآن يدير على لسانه أحاديث ما كان ليذكرها قط لو أن قلبه ولبّه مرتبطان أول الأمر بالكتاب العزيز»(٢)

فالشيخ يتجه باللائمة على بعض أشخاص قليلو نظر بالقرآن كثيرو نظر في الأحاديث، واعتمادهم كله على مرويات لا يعرفون مكانها من الكيان الإسلامي المستوعب لشؤون الحياة(٣)، ويرى أن الحق في هذه القضية إنما يكون باتحاد الجانبين، وباجتماعهما يكتمل النظر الصحيح، ويرى أن عيب الذين يشتغلون بالحديث قصورهم في تدبّر القرآن وفقه أحكامه، وهم يستكثرون على غيرهم من رجال الفكر الإسلامي الرحب أن يكتشفوا علّة هنا أو شذوذاً هناك، لذا فالتعاون في ضبط التراث النبوي مطلوب، ومتن الأحاديث يمكن أن يتناول عقائد وعبادات ومعاملات يشتغل بها علماء المعقول والمنقول، وقد يتناول الحديث شئون الدعوة والحرب والسلام، فلماذا يُحرم علماء هذه الآفاق من النظر في المتون المروية، وما قيمة حديث صحيح السند عليل المتن؟

ومن المعلوم أن هناك ألوف من الأحاديث الخالية من الشذوذ والعلة تمّ تسجيلها في دواوين السنة، فإذا بقي نزر يسير يتعاون في ضبطه الفقهاء والمحدثون فذلك خير وأولى.(٤)

(١) ينظر: محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، دار الشروق، ط٦، د/ ت، ص١٩.
(٢) السابق المرجع ص٢١٠.
(٣) ينظر: المرجع السابق ص٢٤، ٢٩.
(٤) ينظر: المرجع السابق ص٢١.

فالشيخ يُقرّ الأحكام وفق اجتهاد معيّن، يعتمد على القرآن أولاً، فإذا وجد في تراث المرويات ما يتّسق معه قبله، وإلا فالقرآن أولى بالاتباع، ويحاول الشيخ أن يُعمل الحديث داخل سياج من دلالات القرآن القريبة أو البعيدة.

هكذا كان شأن الشيخ محمد الغزالي في التعامل مع السنة النبوية، فكان يعلم للسنة مكانتها وأهميتها من الدين، لكن دون أن يفصله الأحاديث عن الآيات القرآنية التي يتبين من خلالها المعنى العام الذي ورد الحديث متحدثاً عنه.

وكان للشيخ رحمه الله الكثير من المقالات التي كتبها في السيرة النبوية، إلى أن أكرمه الله تعالى بمجاورة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبدأ بكتابة كتابه المعروف (فقه السيرة) وهو في المدينة المنورة، وأكمل أجزاءه بعد ذلك وأتمه وهو في مكة المكرمة.

وكان للشيخ طريقة مميزة في دراسة السيرة النبوية حاول أن يمزج فيها بين الكتاب والسنة الصحيحة والعقل الراشد، فجمع الشيخ بذلك بين طريقة القدامى الذين يعتمدون حشد الآثار وتمحيص الأسانيد وتسجيل ما دقّ وجلّ من وقائع، وبين طريقة المؤرخين المحدثين الذين يميلون إلى التعليل والموازنة وربط الحوادث في سياق متماسك.

فكان يرى أن المسلمين في أيامنا هذه يعرفون عن السيرة قشوراً خفيفة، لا تحرك القلوب ولا تستثير الهمم، وهم يحبون النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته عن تقليد موروث ومعرفة قليلة، يكتفون من هذا التعظيم بإجلال اللسان أو بما قلت مؤونته من عمل، إلا أن هذا النوع من المعرفة والجهل به سواء، لأن حياة المصطفى صلى الله عليه وسلم ليس مسلاة شخص فارغ، بل هي مصدر الأسوة الحسنة التي يقتفيها المرء المسلم، ومنبع الشريعة العظيمة التي يدين بها.[1]

لم يكن الشيخ في كتابته للسيرة النبوية مؤرخاً محايداً مبتوت الصلة بمن يكتب عنه، بل إنه كان يكتب كما يكتب جندي عن قائده، أو تابع عن سيده، أو كما يصف تلميذ أستاذه، ومن المعلوم أن الشيخ كان من أدرى الناس بواقع المسلمين وضياعهم في هذه الأيام، فلا عجب أن يقصّ وقائع السيرة بأسلوب يومئ من قريب أو بعيد إلى حاضرنا المؤسف، فكل ما أورد من قصة جعلها تحمل في طياتها شحنات من صدق العاطفة وسلامة الفكر كي يعالج هذا التأخر المثير، فالمسلم الذي لا يعيش الرسول صلى الله عليه وسلم في ضميره، ولا تتبعه بصيرته في عمله وتفكيره، لا يُغني عنه أبداً أن يحرّك لسانه بألف صلاة في كل يوم

(١) ينظر: محمد الغزالي، فقه السيرة، دار القلم، (دمشق)، ط١، ١٤٢٧ه، ص٥-٦.

وليلة.[١]

يتوجه الشيخ باللائمة على المؤرخين للسيرة النبوية الشريفة، وكذلك المؤرخين لكثير من الأحداث الهامة وأطوار الناس، حيث أن آفتهم هي قلة التثبت وضعف التمحيص، وقد وقع كثير من القدماء والمحدثين في هذا الخطأ على تفاوت بينهم في دقة المأخذ وحدة الانتباه.[٢]

ولقد كان للشيخ رحمه الله منهجاً خاصة في رواية أحاديث هذا الكتاب واعتماده عليها، فقد يكون الحديث ضعيفاً عند علماء الحديث، فالشيخ يُعمِل نظره فيه، فربما يجد معناه متفقاً مع آية من كتاب الله أو مع أثرٍ من سنة صحيحة، مع أنه حديث ضعيف، فلا يرى الشيخ حرجاً في روايته، لأن هذا الحديث لم يأت بجديد في ميدان الأحكام والفضائل، بل هو شرح لما تقرر من قبل في الأصول المتيقنة، وبنفس الوقت يعرض الشيخ عن الأخذ بأحاديث صحيحة؛ لأنها – برأيه – لا تنسجم مع السياق العام بفهم دين الله وسياسة الدعوة.[٣]

وبهذا المنهج جعل الشيخ من تفاصيل السيرة موضوعاً متماسكاً يشدّ أجزاءه روح واحدة، ثم وزّع النصوص والمرويات الأخرى بحيث تتفق مع وحدة الموضوع، وبهذا كانت السيرة عنده شيئاً ينمي الإيمان ويزكّي الخلق ويلهب الكفاح.[٤]

المطلب الخامس: قضية الأخلاق في الإسلام:

لقد كان للشيخ محمد الغزالي معالجة رائعة لقضية الأخلاق في المجتمع الإسلامي، وذلك نتيجة الضعف والوهن الذي أصاب المجتمع جراء انهيار المنظومة الأخلاقية، وهذا الانهيار هو أمر جلل وليس بالبسيط؛ لأننا لا نستطيع بناء قصر شاهق دون دعائم وأعمدة وشبكات حديدية، وهذا شأن الإنسان، فلا نستطيع بناء إنسان كبير دون أخلاق مكينة وجملة من الخلال تورث الثقة.[٥]

والأخلاق هي مجموعات متنوعة من الفضائل والتقاليد، تحيا بها الأمم كما تحيا الأجسام بأجهزتها وغددها، فإذا اعتلت هذه المجموعات وانفكت رأيت ما لا يسر في مسالك العامة والخاصة، ولقد كان في المسلمون الاوائل نماذج أخلاقية، تجسد فيها الشرف والصدق والطهر، لذلك تصدروا القافلة

(١) ينظر: المرجع السابق ص٧.
(٢) ينظر: محمد الغزالي، فقه السيرة، ص١١.
(٣) ينظر: المرجع السابق ص١١، ١٤.
(٤) ينظر: ملكاوي، العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي ص٢٣٥.
(٥) ينظر: محمد الغزالي، الطريق من هنا، دار الشروق، ط٣، ١٤١٢ه، ١٩٩٢م، ص٤٣-٤٤.

البشرية عن جدارة، ولا غرو فقد كانوا صُنعَ الإنسان الذي وصفه الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: ٤]، فمشت خلفهم الشعوب تتعلم وتتأسى، ولقد انعكس الحال، فنحن اليوم نجري وراء الشعوب الأخرى دون أن نصل إلى مستواها؛ لأن وزن الأخلاق عندنا خفيف وارتباطنا بها ضعيف، لذا فقد أصبحنا نرى الكثير من الكذب في المواعيد وفي رواية الأخبار وفي وصف الآخرين، أصبح هذا الأمر سهل جداً، وكذلك استقصاء الإنسان في طلب ما يرى أنه له، واستهانته في أداء ما عليه، وفقدان الرفق في القول والعمل، وشيوع القسوة والمبالغة في الخصام.(١)

ونحن المسلمين ورثنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم ثروة كبيرة من الآداب النفسية والاجتماعية، يتدبرها المرء فيتساءل: إلى أي أفق من الكمال والسناء ترفعنا هذه النصوص لو أننا حولناها إلى مسالك حية، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء، وإن أحسن الناس إسلاماً أحسنهم خُلُقاً»(٢)

وقوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله عزّ وجلّ ليعطي على الرفق ما لا يُعطي على الخرق، وإذا أحب الله عبداً أعطاه الرفق، ما من أهل بيت يُحرمون الرفق إلا حُرِموا الخير»(٣)، وغيرها الكثير من الأحاديث التي تأمر بحسن الخلق وتحضّ عليه.

وفي رأي الشيخ أن مظاهر انهدام المنظومة الأخلاقية تتجلى في ثلاثة ظواهر انتشرت في الأمة وهي الرياء والتستر برداء الدين والغش.

فتحولت الآداب إلى قشور يطلّ من ورائها الرياء، بل الرياء يكاد يكون المسيطر على العلاقات

(١) ينظر: محمد الغزالي، الطريق من هنا ص٤٥.

(٢) رواه أحمد بن حنبل (المتوفى: ٢٤١هـ)، (المسند)، ت: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م، في مسند البصريين، حديث جابر بن سمرة السوائي، رقم: ٢٠٩٤٤، ٣٤/ ٤٧٩، وعبد الله بن محمد أبو بكر بن أبي شيبة (المتوفى: ٢٣٥هـ)، المصنف في الأحاديث والآثار، ت: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد بالرياض، ط١، ١٤٠٩، في كتاب الأدب، باب ما ذُكر في حسن الخلق وكراهية الفحش، رقم: ٢٥٣١٦، ٥/ ٢١٠، وسليمان بن أحمد أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المعجم الكبير، ت: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية بالقاهرة، ط٢، د/ ت، باب الجيم، علي بن عامر عن جابر بن سمرة، رقم ٢٠٧٢، ٢/ ٢٥٦، وأبو يعلى أحمد بن علي الموصلي (المتوفى: ٣٠٧هـ)، المسند، ت: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث بدمشق، ط١، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م، في مسند عمرو بن العاص رضي الله عنه، رقم ٧٤٦٨، ١٣/ ٤٥٨.

(٣) رواه الطبراني، المعجم الكبير، باب الجيم، رقم ٢٢٧٤، ٢/ ٣٠٦، وعلاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي (المتوفى: ٩٧٥هـ)، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، مؤسسة الرسالة، ط٥، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، الكتاب الثالث في الأخلاق، فصل تعديد الأخلاق المحمودة على ترتيب الحروف المعجمة، رقم ٥٤٦٠، ٣/ ٥٤.

الاجتماعية، وهو الباعث الأول على البذخ في الاحتفالات والولائم، ولماذا لا نذكر أنفسنا بأن النار مثوى المرائين والذين عموا عن وجه الله، وأرادوا الحياة الدنيا وزينتها، واستماتوا في طلب الشهرة والسمعة، ولماذا لا نقول لأنفسنا أنّ أول من تُسعّر بهم النار رجال دين يطلبون الدنيا، ورجال مال وحرب يُنشدون الوجاهة والسلطان؟ ألم يُعلّمنا نبينا صلى الله عليه وسلم ذلك؟

لقد أصبح للناس في أيامنا قدرة عجيبة في إلباس شهواتهم ثوب الدين، وتحقيق مآربهم الشخصية باسم الله.(١)

وعندما تكون الرذيلة جزءاً لا بد منه في الحياة الاجتماعية فعفاء على الدين، وطبيعي أن يكون اسماً لا حقيقة له، وعنواناً لا مفهوم له، والواقع أن فشو الغشّ في مجتمعنا وقلته في مجتمعات أخرى هدّ ركننا وزعزع الثقة فينا، حتى أن بعض الجامعات الكبرى ترفض الإجازات الممنوحة من بعض معاهدنا لأنها لا تطمئن إلى قيمتها العلمية.

فخلاصة الموضوع أن الأخلاق لغة عالمية تتفاهم بها الشعوب بأكملها، تتحاكم إلى منطقها، كما أن السلبية لا تزكي فرداً ولا جماعة، والأمة التي تدور حول مآربها لا تزيد أعدادها من الوحوش في الغابات، كما أن الأخلاق عندنا تتصل اتصالاً وثيقاً بالإيمان، فإذا اهتزت العقيدة ظهر النقص واضطربت الأمة، وكي يعود سلطان الأخلاق إلى عرشه يجب أن يعود اليقين إلى الأفئدة، وأن تعتاد الجماهير على الصلاة، وأن تنتصر الفضائل على الشهوات، ويجب أن يتم تصنيف الأخلاق وفق مقتضيات العصر، وفي الإسلام مدد لا يتناها لهذه الغاية.(٢)

ويجب أن نلفت أنظار المنصفين إلى أساليب التربية الناجعة والأخلاق الرائعة التي جاء بها صاحب الرسالة الخاتمة صلى الله عليه وسلم، ونقل بها العالم من الغيّ إلى الرشاد، وسوف نلاحظ تلك الأخلاق التي تحولت إلى حقائق حية تجلّى فيها الكمال، وأضحى سيرة رجل وأدب أمة، ذلكم هو أدب النفس المحمدية صلى الله عليه وسلم.(٣)

(١) ينظر: محمد الغزالي، الطريق من هنا ص٤٦.

(٢) ينظر: محمد الغزالي، الطريق من هنا ص٥٢.

(٣) ينظر: محمد الغزالي، خلق المسلم، دار الريان، ط١، ١٤٠٨ه، ١٩٨٧م، ص٤، وعويس: الشيخ محمد الغزالي تاريخه وجهوده وآراؤه ص٢٠.

المبحث الثاني: مواجهة الأفكار الوافدة:

كان للشيخ محمد الغزالي كثيرٌ من المؤلفات التي واجه بها التيارات والأفكار الوافدة والهدّامة، وربّما يحكم القارئ لأفكاره وكتبه أنه كان رائداً مهماً في هذا المجال، وسأعرض أهمّ التيارات والأفكار التي واجهها الشيخ محمد الغزالي في كتاباته.

المطلب الأول: الغزو الثقافي للإسلام:

إن العامل الأهم الذي يُعبّر عن الأمة هو ثقافتها، والثقافة هي الصورة التي تُعرف الأمة من خلالها، وخاصةً إذا كانت ثقافة غنية فتكون بذلك أمارة من أمارات عظمتها، فالمسلمون عبر العصور القديمة استطاعوا أن يُنشئوا تراثاً ثقافياً متيناً، تميّز المسلمون قديماً بالثقافة الواعية الشاملة لكل قضايا عصورهم التي عاشوا فيها، لكن لم يبق ذاك الحال طويلاً حتى رأينا الثقافة الإسلامية تُلقّح بمفاهيم غربية، وخاصة في عصر الاستعمار؛ ذلك لأن الدول الاستعمارية سحبت جيوشها من الأقطار التي احتلتها لكنها وكّلت إلى ثقافتها الغالبة أن تحتفظ لها بكل شيء، فإذا الغزو الثقافي أسوأ حالاً من الغزو العسكري، واحتلال العقول أقسى من احتلال الأراضي، ورأينا الكثير من المسائل التي حُشيت بها الأذهان، وما هي في الحقيقة إلا فضول أو ذيول يجب قطعها، لذا فإنه لا يمكن للإنسان أن يغض الطرف عن أثر ذلك الغزو إلا إذا كان أحمق.(١)

ويرى الشيخ أن التربية الفاسدة والثقافة المغشوشة لهما أثر عميق في التبلّد الثقافي السائد، والانهيار الحضاري في أمتنا جاء وليد تخلّف عقلي اجتاح أرجاءها بعد خيانات علمية واجتماعية وتربوية وسياسية شملتها من القمة إلى القاع، والغريب في الموضوع أن الذين يستقبلون هذا الغزو الثقافي يفتحون له الباب على مصراعيه لأنه في تصورهم إنقاذ من التخلّف والضياع، ولكن الحقيقة في ذلك أنه لو كان ما يجيئنا من الغرب هو العلم وحده لعددنا من يُعارض طريقه خائناً، لكن التقدم العلمي ما يجيئنا منه إلا النزر اليسير، أما الطفح الحيواني والشتات الاجتماعي فسيلٌ دافق، وهذا هو الخطر بعينه.(٢)

ويرى الشيخ أن لمأساة التي نشكو منها أن القوى المعادية للإسلام استغلّت التفوق الحضاري كي تنال منّا، وهذا التفوّق وإن لم يكن من صنع يدها فقد تمّ في أرضها، ومع أن الاستعمار الثقافي يعتمد على تفوّق

(١) ينظر: محمد الغزالي، علل وأدوية، دار الشروق، د/ ط.ت، ص١٧٢، ومحمد الغزالي، سر تأخر العرب والمسلمين، دار الصحوة بالقاهرة، ط١، ١٤٠٥ه، ١٩٨٥م، ص٦٤.

(٢) ينظر: محمد الغزالي، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، دار الشروق، ط١، ١٤١٨ه، ١٩٩٨م، ص١٠٩.

الغرب بشقّيه الصليبي والشيوعي إلا أن العامل الأكبر في نجاحه هو الفوضى العلمية والاجتماعية في الأمة الإسلامية.(١)

إن الثقافة الإسلامية في محنة محزنة، وقد ورثنا خليطاً هائلاً من المعارف الدينية والمدنية، وذلك يحتاج إلى نظر فاحص واختيار لبيب، فيجب إعادة ترتيب العقل الإسلامي من جديد، ولا بد من محو الفوضى الفكرية وإعادة الرشد إلى حياتنا الثقافية، وتمكين أولي الألباب من عرض الإسلام دون تحريف ولا مغالاة، ودون قصور ولا فوضى.(٢)

المطلب الثاني: منهج الشيخ محمد الغزالي في مواجهة التنصير:

كانت للشيخ محمد الغزالي جهود كثيرة في مواجهة التنصير، وحاول في كتاباته أن يدحض الكثير من الافتراءات التي يروّج لها دعاة التنصير المدعومون من مجلس الكنائس العالمي، وكان كتابه (التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام) إعلاءً لتاريخ التسامح الإسلامي بخاصّة والدعوة الإسلامية بعامّة، وفضحاً لتاريخ الكنيسة الأسود الملطّخ بالدماء، ليس ضد المسلمين وحدهم، إنما ضد كل طوائف المسيحية المخالفة، وضد الذين خالفوا الكنيسة عبر التاريخ في رأي أو فكرة، كما قام الشيخ بفضح دور الكنيسة في الحروب الصليبية الهمجية، التي أسالت دماء المسلمين أنهاراً في كثير من البلاد.

ولقد قام أحد رجال الكنيسة بالطعن في الإسلام فتصدّى له الشيخ الغزالي في كتابه هذا، وتعمّد الشيخ أن لا يذكر اسم الطاعن حتى يموت في مهده.(٣)

إن الأحقاد الطائفية والحروب الدينية غريبة على أرض الإسلام، وقد أُلِف هذا الدين منذ أن بدأ أن يعاشر غيره على المياسرة واللطف، وأن يرعى حسن الجوار فيما يُشرّع من قوانين ويضع من مبادئ، كما أن الإسلام لم يقم على اضطهاد مخالفيه أو مصادرة حقوقهم، أو تحويلهم بالكره عن عقائدهم، وليت الأديان الأخرى تقترب من ليونة الإسلام وسماحته.(٤)

وتصدّى الشيخ في كتابه (صيحة تحذير من دعاة التنصير) لدراسة الكثير من القضايا المسيحية، وقضايا اختلافهم مع المسلمين، فكان كتابه رداً فكرياً على العقائد النصرانية الأساسية التي صنعها (شاؤول) والتي حجبت المسيحية الإلهية عن البشرية.

(١) ينظر: المرجع السابق ص١١٦، ١١٨.
(٢) ينظر: محمد الغزالي، علل وأدوية ص١٧٣.
(٣) ينظر: ملكاوي، العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي ص٢٣٤.
(٤) ينظر: محمد الغزالي، التعصّب والتسامح بين المسيحية والإسلام، دار نهضة مصر، ط٦، ٢٠٠٥م، ص٥.

ويرى الشيخ أن الخلاف الأهم بيننا وبين النصارى هو قولنا ببشريته وقولهم بألوهيته، ولو فكّر رجال الكنيسة بحياد وموضوعية لتغيّرَ موقفهم من المسلمين، ولبذلوا الجهود الصادقة المخلصة في التعرّف على هذا المنهج الجديد الذي جاء بعد عيسى عليه السلام، فلم يأت مكذباً لنبيهم ولا ساباً له ولا متورطاً في محاولة قتله ولا مدّعياً على أمه، بل جاء ليقول: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [سورة المائدة: **٧٥**]، ولقد أعان السلطان الروماني على بلوغ النتيجة المعروفة في أيامنا، فإذا الواحد ثلاثة، وإذا المعابد مذابح وقرابين، وإذا رجال الدين وسطاء يغفرون الذنوب، وإذا المسؤولية الشخصية تبتعد، وإذا أحكام إلهية كثيرة تتوارى، وإذا تحريف واسع النطاق يدخل في تراث عيسى عليه السلام.(١)

ولم يدّع عيسى أنه إله، ولو أراد أن يتخذ لقباً لاتخذ لنفسه لقب (ابن داوود) المعروف بين بني اسرائيل، والذي كانوا يعتبرونه لقب المنقذ المنتظر، ولكنه مع ذلك لم يفعل، لكن كيف وقع هذا الانحراف الكبير؟ لقد فُرض ذلك بالقرار السياسي والعسكري في مجمع نيقية سنة (**٣٢٥**م).(٢)

والمشكلة مع النصرانية الكنسية – برأي الشيخ – صعبة ومعقدة وذلك لأمرين:

الأول: أن بولس هو رجل في غاية الدهاء والمكر قد نجح في القضاء على المسيحية البسيطة.

الثاني: يتمثل في الرفض العقلي والحضاري لكنيسة بولس المعقّدة اللامعقولة، والمأساة الكبرى أن هذا الرفض لم يتجه فقط إلى نقد المرحلة البولسية، بل اتجه إلى رفض الدين كله.(٣)

فالنتيجة لهذا الكلام بعموم من خلال مطالعة كتب النصرانية أن بولس هو منشئ هذا الدين، وهو الذي يقف وراء الأناجيل بعامة ووراء انجيل يوحنا بشكل خاص الذي نصّ صراحة على ألوهية المسيح، ويرى الشيخ أن يوحنا ليس حواريي السيد المسيح بل هو – كما يذكر كاتب الموسوعة البريطانية – يوحنّا آخر كان يعيش في إفسس، ويشير موريس بوكاي بأن كل شيء يدفع إلى الاعتقاد بأن النص المنشور حالياً ينتمي إلى أكثر من كاتب واحد.... وبولس يقف من ورائهم جميعاً.(٤)

وهكذا فضح الشيخ الغزالي دعاة التنصير، وعرّى موقف الكنيسة اللاأخلاقي، فلو كان هؤلاء من أنصار المسيح حقاً لوضعوا أيديهم في أيدي المسلمين ضد اليهود الذين يرون في المسيح وأمه رأياً فاحشاً،

(١) ينظر: محمد الغزالي، صيحة تحذير من دعاة التنصير، دار الصحوة، ط١، ١٤١٢ه، ١٩٩١م، ص٢٨.
(٢) ينظر: المرجع السابق ص٥.
(٣) ينظر: المرجع السابق ص١٠.
(٤) ينظر: المرجع السابق الصفحة نفسها.

وضد العلمانيين والماديين والانحلاليين الذين يرفضون وجود الدين في الحياة، ويحصرونه في زوايا المعابد، وضدّ الأديان الوثنية الموجودة في الهند والصين والنيبال، التي لا تؤمن بالله ولا بالأنبياء، أما المسلمون فهم أمة التوحيد الكامل، ورأيهم في المسيح وأمه أعظم رأي، وللمسيح وأمه في دينهم مكانة سامية، فهو من أولي العزم من الأنبياء، وأمه صدّيقة شريفة، لها سورة في قرآننا باسمها لمكانتها وشرفها، فما معنى مسالمة دعاة التنصير والكنيسة لكل الناس وإعلانهم الحرب على المسلمين وحدهم إلا أن يكونوا قد خرجوا من دائرة الولاء للسيد المسيح إلى دائرة أخرى هي دائرة الولاء لمخترع الدين الكنسي الجديد (بولس) الذي تتعارض تعاليمه تماماً مع تعاليم المسيح، وأيضاً دائرة الولاء للمصالح المادية المنافع الدنيوية، حتى ولو أغضبت هذه المصالح رب العالمين سبحانه وكانت حرباً على الأديان والقيم وموازين العدل كلها، وهذا في الحقيقة ما يفعله دعاة التنصير وقادة الكنيسة.(١)

المطلب الثالث: منهج الشيخ في مواجهة الشيوعية:

اهتم الشيخ رحمه الله بمسألة العدل الاجتماعي، وكان من أوائل من كتب في هذا المجال، فكانت كتبه نابضة بالوقوف إلى جانب الكادحين ومقاومة الإقطاعيين المترفين، ومقالات الشيخ في هذا المجال لم تكن من برجٍ عاجي، بل من واقع الحياة البائسة التي تعيشها الشعوب المنكوبة، فحارب الشيخ الملكيات الطاغية، وشيوع الظلم وانهيار الموازين الاجتماعية والاقتصادية، فالإسلام يتضمّن من المبادئ ما يعالج به كل الأمراض التي تأتي في المسيرة التاريخية؛ لأنه صالح لكل زمان ومكان، أما المذهب الشيوعي فقد جاء يتذرّع بالوقوف إلى جانب الفقراء والمستضعفين وهو في حقيقته حرب على الأديان بأكملها، ولو كان الأمر كما يدّعي الشيوعيون لما استلزم الأمر الإبادة الجماعية، واجتياح الجيوش الشيوعية لعواصم كثيرة، وتسليط الشيوعية لكثير من الجبارين يفتحون المعتقلات لكل مَن يختلف معهم في أدنى رأي، ولكل من يريد أن يتّجه بعمله لله ويرى أن الدين رحمة وعدل وحب.(٢)

فالشيخ كان يدرك تماماً أن خلايا الشيوعية قامت أساساً على أكتاف اليهود، وأن مؤسسي الشيوعية إما يهود وإما عملاء لهم، كما أن الحكومات التي رفعت لواء الشيوعية أو الاشتراكية هي حكومات لا همّ لها إلا الحرب على الإسلام.(٣)

(١) ينظر: عويس: الشيخ محمد الغزالي تاريخه وجهود وآراؤه ص١١٠-١١١.
(٢) ينظر: محمد الغزالي، الإسلام في مواجهة الزحف الأحمر، دار نهضة مصر، ط١، د/ ت، ص١٠٥.
(٣) ينظر: عويس، الشيخ محمد الغزالي تاريخه وجهود وآراؤه ص٨٤.

فالشيوعية ليست دعوة اجتماعية أو اقتصادية، وإنما هي دعوة إلحاد وكفر، وأنها نِحلة يهودية لتدمير الدين، حتى يفرغ العالم ولا يبقى إلا الماسونية والتوراة، وحاول الشيخ أن يقف أمام هذا المدّ الشيوعي وقفة عالم عامل، لا يخشى في الحق لومة لائم.

ويرى الشيخ أنه لا بد من كشف الاشتراكيين العرب، ولا بد من فضح حقيقتهم، لأن فهمهم وتطبيقهم موضع تندّر للعدو والصديق، وكانت النتيجة التي أوصلوا إليها الأمة إفقار الأغنياء وإتعاس الفقراء، وإذلال من أعزّ الله.(١)

ويرى الشيخ أن خصومة الاشتراكيين للإسلام شديدة، ولكنهم اتأدوا في الإعلان عنها، فدعوا بداية أمرهم إلى اشتراكية إسلامية، ثم قالوا أنها اشتراكية عربية، ثم قالوا أنهم يريدون تطبيق عربي للاشتراكية الواحدة، وفي النهاية قالوا اشتراكية وحسب، وهكذا أخفى الاشتراكيون تحت عنوان (الاشتراكية) ضغائن خسيسة، وشهوات جامحة، وشقيت جماهير كثيرة، حتى أن مصر التي كانت من أكثر أقطار الأرض رخاءً تحولت إلى بلد بائس مثقل بالديون.(٢)

ويتساءل الشيخ أنه هل يُتصوّر أن يعيش في ظل السلطة الشيوعية إسلام؟

فيجيب بأن الذين يجيزون ذلك إنما يقولونه لأحد سببين: إما لأنهم لا يفهمون الإسلام، أو لأنهم لا يفهمون الشيوعية، ذلك لأن فلاسفة الشيوعية أنفسهم وواضعوا جرثومتها في الأرض يقولون بالمادية المحضة، فلا يمكن للدين الإسلامي أن يوجد في ظل الإلحاد، ويصرّحون بأن العالم شيء واحد لم يخلقه أيُّ إله ولا أي إنسان، وأنه كان ولا يزال وسيظلّ شعلة حيّة إلى الأبد تشتعل وتنطفئ تبعاً لقوانين طبيعية معينة، وأنهم لا يؤمنون بحياة أخرى.(٣)

لذا فالشيخ يرى أنه يستحيل أن ينتسب إلى الحزب الشيوعي إلا شخص موغل في الكفر بالله وكتبه، وليس لتعاليم السماء ظِلٌّ في نفسه أو سلطان على قلبه، حتى إذا ظهرت عليه أعراض تديّن ما طُرِد من الحزب فوراً.(٤)

فحاول الشيخ من خلال كتاباته ضد الشيوعيين والاشتراكيين أن يقود حملة تنبيه ضد ما يحيق بالإسلام من تآمر وتهديد لشرف الدعاة إليه، وهو دعوة متمثلة بالتفاؤل للعودة إلى منابع الإسلام الأصيلة، وتحديد

(١) ينظر: محمد الغزالي، الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين، دار نهضة مصر، ط٦، ٢٠٠٥م، ص١٠.
(٢) ينظر: محمد الغزالي، معركة المصحف في العالم الإسلامي ص٢٤٦.
(٣) ينظر: السابق ص٢١، ٢٨.
(٤) ينظر: السابق ص٢٦.

موقفه من العلم والنظام السياسي والنظام الاقتصادي والاجتماعي، وموقفه من المذاهب الحديثة.

ومن كلمات الشيخ الجميلة في (الإسلام في وجه الزحف الأحمر) «إنني أكتب هذه الصحائف بالحقائق العلمية والتاريخية، وأوراقها صرخات قلب غيور على دينه شفيق على أمته، وأعرف أنني بكتابتها سأتعرّض لعداوات مميتة، ولكن بئست الحياة أن نبقى ويفنى الإسلام، إن الضربات تنهال من كل ناحية على هذا الدين الجلد، وعلى بعد ما بين الخصوم الضاربين من منازع وغايات فقد جمعهم حب الإجهاز على الإسلام واقتسام تركته»[١]

المطلب الرابع: منهج الشيخ في مواجهة العلمانية:

للشيخ محمد الغزالي جهود جبارة في مواجهة العلمانية والعلمانيين، ولقد كانت الكثير من كتاباته تنضح بالدفاع عن الإسلام في وجه الطاعنين، وكان يُقام بعض المحافل الحوارية فكان الشيخ يجهر فيها ببيان حقيقة الإسلام وخسة الدعوات العلمانية، وخصّ بعض كتبه للرد على العلمانيين ككتاب (من هنا نعلم) الذي ردّ فيه على كتاب (من هنا نبدأ) لخالد محمد خالد وكان سبباً في رجوعه عن آرائه والتزامه بتعاليم الإسلام، فردّ الشيخ عليه رداً علمياً موضوعياً مهذّباً، حتى كشف الله الغشاوة عن بصيرة خالد محمد خالد، فتاب إلى الله توبةً صريحة وقوية ومعلنة، وضمّن آراءه الجديدة كتابه (الإسلام دين ودولة).

ويُعدّ موقف الشيخ من الكاتب المصري (فرج فودة) من أبرز مواقفه ضد العلمانيين، ومعلوم أنه جرى بينهما حوار طويل ومناظرة انكشفت عن تبيين الشيخ لحقائق الدين الإسلامي، وأنه ليس مجرد دين لاهوتي مفصول عن الوطنية والجنسية، وقد طُبعت هذه المناظرة باسم (مصر بين الدولة الإسلامية والدولة العلمانية)[٢].

تكلّم الشيخ في ميدان دفاعه عن الإسلام أمام العلمانيين عن موقف الاستعمار من الدين، وكيف أن الاستعمار لا يأبه بدينه النصراني ولا بديننا الإسلامي، لكنه يستغل دينه برجاله ومؤسساته في ضرب ديننا، فهو يستغلّ الدين فقط لتدمير الآخرين لا لإرساء قواعد الخير بين الناس.[٣]

ليس هذا مناط العجب، فهذه المعاملة للإسلام من قبل الاستعمار ليست جديدة، إنما العجب أن يشتغل لصالح هذا الاستعمار خونة منا يمهدون للتنصير، ويعملون للكنيسة الاستعمارية، ويسعون إلى

(١) محمد الغزالي، الإسلام في وجه الزحف الأحمر ص٢.

(٢) ينظر: محسن (خالد)، مصر بين الدولة الإسلامية والدولة العلمانية، (مناظرة بين محمد الغزالي وفرج فودة)، مركز الإعلام العربي، ط١، ١٤١٢ه، ١٩٩٢م.

(٣) ينظر: محمد الغزالي، الإسلام والأوضاع الاقتصادية، دار نهضة مصر بالقاهرة، ط٣، ٢٠٠٥م، ص١٢٣.

تفريغ الأمة من عقيدتها الإسلامية، ومن منظومتها الحضارية البنّاءة القائمة على العدل المطلق لكل الناس والرحمة المطلقة.(١)

هؤلاء هم العلمانيون، الذين يسعون لغربنة المسلمين، وتشويه المنطلقات الحضارية والتاريخية التي أبدعت أمةً هي خير الأمم، هؤلاء وأمثالهم يحسبون أن الإسلام عُطّلت أحكامه منذ أن جُعلت القوانين الفرنسية أساس الحكم في البلاد، أما قبل ذلك فقد كان الإسلام بخير في نظمه التي تسود المجتمع، وهذا غلط كبير؛ فالتشريعات الجنائية والمدنية التي استقدمت ليست إلا فروعاً من الدستور الذي يقوم عليه أصل الحكم، ويحدد العلائق بين الأمة وولاة أمورها كما يحدد العلاقة بين أفراد الشعب إذا تنازعوا أو تصالحوا، وفقدان هذا الدستور هو الذي مهّد الطريق لظهور طائفة من الحاكمين بأمرهم يباشرون السلطات العامة على نحو مطلق.(٢)

من المعلوم أن التدين هو مفتاح النفس المؤمنة، فإذا وجدت هذه النفس متنفسها العميق في العقيدة وسياجها المتين في الإسلام من حيث، وإذا وجد الإسلام من هذه الأمة أفئدة تهوي إليه وتنفّذ تعاليمه، فانتظر نهضة ناجحة ومستقبلاً مشرفاً وخيراً غزيراً، لكن المستمر الأجنبي يدرك هذه الحقيقة، ولا يتوجّس من شيء توجّسه من قيام هكذا حركة تصل ما انقطع من تاريخنا، وترشّحنا للقيام بواجبنا العتيد على الشكل الأتم، فمن هنا ركّز الاستعمار الغربي بأطرافه المتعددة وقواه المحتشدة على فصل الدين عن الدولة، وإبعاد الإسلام عن ميادين التشريع والتنفيذ، والدفع به للوراء ليعيش في مسجد مهجور، أو لتقرأ آياته في حفل كئيب.

والمشكلة أن هذا التيار لم يتوقف عند الاستعمار الخارجي، بل هناك أيضاً الاستعمار الداخلي الذي يسانده من ناحية أخرى، ويعمل دائماً على إفساد معنى التدين.(٣)

وفي وجه هذه المؤامرات جميعها فإنه من حق الإسلام علينا أن ندافع عن المطاعن التي وُجّهت إليه، ومن حقِّ نهضته أن نزيح العوائق التي وُضِعت أمامها، ومن هنا فإن المؤامرة على الإسلام وأمته الغافلة قد أخذت أبعاداً جديدة مخوّفة، وقوى الإسلام قد وَهنت، فلا بد لنا نحن المسلمين أن نُعمل العقل، ثم ننظر فيما يُطرح علينا من مسائل.(٤)

(١) ينظر: محمد الغزالي، الاستعمار أحقاد وأطماع، دار نهضة مصر، ط٤، ٢٠٠٥م، ص٩.
(٢) ينظر: محمد الغزالي، من هنا نعلم ص١٤.
(٣) ينظر: المرجع السابق ص٧-٨.
(٤) ينظر: محمد الغزالي، قذائف الحق، دار نهضة مصر، ط١، ١٩٩١م، ص٨.

فالإسلام دعا إلى كافة الفضائل، ودعا إلى الحياة الكريمة دون تمييز بين جنس أو لون، والتزم الإسلام جانب العدالة المطلقة يوم دانت له الأرض، وآخر ما وصلت إليه الإنسانية من قواعد وضمانات لكرامة الجنس البشري كان من أبجديات الإسلام، فليس هناك دين جدير أن يقود العالم بأكمله جدارة الإسلام بذلك.(١)

من هنا فلا بد من التصدي لمن ينادي بفصل الدين عن الدولة، وأن يبقى الدين في مجالٍ ضيّق لا يتصل بالحياة الاجتماعية والسياسية فيقتصر دوره على المساجد والموالد.

المطلب الخامس: منهج الشيخ محمد الغزالي في التعامل مع قضايا المرأة:

كتب الشيخ محمد الغزالي الكثير من المقالات في قضايا المرأة، ولقد خصص كتاب (قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة) لمناقشة الكثير من تلك القضايا، ويرى الشيخ أن الإسلام سوّى بين الرجل والمرأة في جملة من الحقوق والواجبات، وإذا كانت هناك فروق معدودة فذلك إنما هو من قبيل الاحترام لأصل الفطرة الإنسانية وما ينبني عليها من تفاوت الوظائف، وإلا فالأصل هو المساواة الواضحة في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [سورة آل عمران: ١٩٥] هناك تقاليد وضعها الناس ولم يضعها رب الناس دحرجت الوضع الثقافي والاجتماعي للمرأة، واستبقت معاملتها في ظلمات الجاهلية، وأبت إعمال التعاليم الإسلامية الجديدة، فكانت النتيجة أن هبط مستوى التربية، ومال ميزان الأمة كلّها مع التجهيل المعتمد للمرأة والانتقاص الشديد لحقوقها.(٢)

فبين الإفراط والتفريط خطٌ وسط يجب على المسلمين أن يتعرفوا عليه ويلتزموه، وهو خط لا يتطابق مع وضع المرأة الإسلامية في أغلب المجتمعات، وكذلك لا يتطابق مع تقاليد الفرنجة التي تستمد من وثنية الرومان ومن فلسفة الإغريق، هذا هو الخط الأصلح الذي دعا إليه الإسلام، فالتقاليد الغربية هزّت كيان الاسرة، وهي تقاليد تجتاح العالم، أما القيم الإسلامية فالعارفون بها قليلون، ونشرها يلقى مقاومة عنيدة، خصوصاً من جهة المتدينين.(٣)

وكلما رجعنا إلى السيرة النبوية ازددنا معرفة بما للمرأة من مكانة، وبما كفله الإسلام لها من حقوق، لقد كان لها شخصية مقدورة وأثر يُحسب، ذلك لأن المرأة عرفت قدرها، ولما سمعت منادياً يدعو إلى الإيمان سارعت إلى تلبيته، لكن في عصورنا هذه كان نصيب المرأة قليلاً من الرحمة العامة الغمرة التي بُعث بها

(١) ينظر: محمد الغزالي، حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، دار نهضة مصر، ط٤، ٢٠٠٥م، ص٦.
(٢) ينظر: محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، دار الشروق، ط٧، ١٤٢٢ه، ٢٠٠٢م، ص١٥-١٦.
(٣) ينظر: حسن (عبد الحميد حسانين)، من مقالات الشيخ الغزالي، دار نهضة مصر، ط٤، ٢٠٠٥م، ص٩٨.

صاحب الرسالة الخاتمة، أما في عصر البعثة وأيام الخلافة الراشدة فإن المرأة شهدت أياماً ذهبية[1]، وتأمل موقف النبي صلى الله عليه وسلم من جميلة بنت أوس عندما جاءته تشكو بقاءها في بيت الزوجية، لا لشيء إلا لأنها تكره هذا الزوج وتعاف عشرته، فقال لها صلى الله عليه وسلم: «لقد أعطاكِ زوجك حديقته مهراً، فهل تردين عليه حديقته؟» فقالت نعم، فأمر الرجل فطلّقها، فمن هنا نعلم أن الأسرة لا تقوم على امرأة تبغض الرجل وتشتهي مفارقته، فمن هنا يقول تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٩][2]

لقد أساءت الأفكار والعقائد السابقة للإسلام للمرأة كثيراً، فنظر إليها على أنها شر لا بد منه، وعلى أنها رجس، وهذا امتهان كبير للمرأة وللإنسانية كلها في حقيقة الأمر، ولقد ساعد نظام الرهبنة الكنسي على تأصيل احتقار المرأة وازدرائها، وبينما كانت المرأة تُحرم من الميراث في الأديان الاخرى جاء الإسلام وجعل نصيبها هي الوحدة الحسابية التي يُؤخذ بها في توزيع الميراث بين الناس حتى لا تُحرم، وهذا شيء جديد في البيئات العربية وفي الديانات كلها، فلا المسيحية ولا اليهودية اعطت للمرأة شيئاً أما الإسلام فهو الذي حفظ لها نصيبها من المال والميراث بعامّة، فالإسلام هو الذي قلب الموازين العالمية السابقة التي كانت تهين المرأة وتحتقر أنوثتها ووظيفتها الطبيعية كأم وزوج.[3]

وكان الشيخ الغزالي يقف مع حجاب المرأة ويراه الوسطية الإسلامية المحققة لإنسانية المرأة وفعاليتها في سياق واحد، فالسُفور يهدر آدمية المرأة ويجعلها سلعةً مبتذلة معروضة للجميع تنشر بواعث الفاحشة أينما تحركت، وأما النقاب فإنه يحول دون فعالية المرأة ويقدمها لغير المسلمين نموذجاً غير مقبول، فضلاً عن أن الحجاب هو الأصل الشرعي، وساق الشيخ لرأيه هذا الكثير من الأدلة والشواهد، وأتى بآراء بعض أئمة المذاهب مما يُؤيد ما ذهب إليه.[4]

ولقد كان من الشيخ أن وقف مع الأدلة التي تؤيد إنصاف المرأة ومساواتها بالرجل في الحق الإنساني العام، فوقف إلى جانب الرأي الفقهي الذي يرى أن دية المرأة مثل دية الرجل، فالدية في القرآن واحدة

(١) ينظر: محمد الغزالي، المرأة في الإسلام، مطبوعات أخبار اليوم، د/ ط.ت، ص١٥.
(٢) رواه البخاري محمد بن اسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه المعروف بـ(صحيح البخاري)، محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ، كتاب الطلاق، باب الخلع وكيف الطلاق فيه، رقم ٥٢٧٣، ٧/ ٤٦.
(٣) ينظر: عويس، الشيخ محمد الغزالي تاريخه وجهوده وآراؤه ص٦٣.
(٤) ينظر: محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث ص ٤٤-٥١.

للرجل والمرأة، والزعم بأن دم المرأة أرخص من دم الرجل وأن حقها أهون زعمٌ مخالف الظاهر الكتاب العزيز، فإن الرجل يُقتل بالمرأة كما تُقتل المرأة بالرجل، فدمهما سواء باتفاق، فما الذي يجعل ديةً دون دية وأما الحديث الذي ورد فيه أن دية المرأة على النصف من دية المرأة فهو حديث لم يصحّ.(١)

ودافع الشيخ كثيراً عن الدور المهم والغائب للمرأة، فالمرأة في مجتمعنا ليس لها دور ثقافي ولا سياسي، لا دخل لها في برامج التربية ولا نظم المجتمع، ولا مكان لها في صحون المساجد ولا ميادين الجهاد، فَذِكر اسمها عيب، ورؤية وجهها حرام، وصورتها عورة، ووظيفتها الأولى والأخيرة عندنا إعداد الطعام والفراش، أما عند اليهود مثلاً فالمرأة تشارك مدنياً وعسكرياً في قيام اسرائيل.(٢)

فمن هنا أيّد الشيخ رأي ابن حزم الذي يجيز للمرأة أن تتولى جميع الوظائف فيما عدا منصب الخلافة أو الإمامة العظمى(٣)، وهذا الرأي يناسب عصر المؤسسات الذي نعيش فيه، بل ربما لا نجد في أيامنا ما يمنع المرأة من تقلّد منصب رئيس الجمهورية؛ ذلك باعتبار أن هذا المنصب إنما هو ممثّل لمؤسسة، فلا ينفرد بالحكم، إنما الحكم لهيئة معتمدة في المؤسسة، أما الرئيس فليس له رأي يستبد به، لذا فربما لا نجد حرجاً بأن تنال امرأة هذا المنصب.

وفي ميدان شهادة المرأة دافع الشيخ بشدة أمام الرأي الذي يقضي بإبعاد شهادة المرأة في باب الحدود والقصاص، فهذا الرأي يقتضي أن تُعتبر شهادتها في أهم ميادين التقاضي وهو الدماء والأعراض، ويبيّن الشيخ أن ابن حزم في تمحيصه للآثار المروية يؤكد أن رفض شهادة النساء في الحدود والقصاص لا يوجد له أصل في السنة النبوية.(٤)

وتعرّض الشيخ للأدلة التي تفيد عدم صحة شهادة المرأة في الحدود والقصاص، وبيّن أنها أدلة واهية لا تقوى على الاحتجاج بها، وسرد الشيخ الكثير من الآثار التي تفيد حصول ذلك وقبوله، وأن قبول شهادة المرأة في الحدود والقصاص هو المذهب الصحيح.(٥)

وهكذا كان الشيخ الغزالي يدور مع القواعد الشرعية الأصلية التي تنصف المرأة، وتحقق مساواتها

(١) ينظر: المرجع السابق ص٢٥-٢٦، ومحمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، ط٥، ١٤٢٤ه، ٢٠٠٣م، ص١٢٢.
(٢) ينظر: محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة ص٣٣.
(٣) ينظر: محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، دار الشروق، ط٦، د/ ت، ص٥٦.
(٤) ينظر: محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث ص٦٧.
(٥) ينظر: المرجع السابق ص٦٨-٦٩.

وفعاليتها، وتنقذها من الإفراط الذي أوقعتها فيه الحضارة الأوربية ومن التفريط الذي أوقعها فيه تخلف المسلمين وفهمهم المغلوط لدينهم، وكان الشيخ الغزالي يهدف من جهاده في ميدان المرأة إلى تنشيط هذا النصف الأساسي من الأمة، وإلى إنقاذ المرأة من دعوات الهدم والتدمير الأخلاقي التي تتلفع بأرديةٍ كاذبة وشعارات خادعة، وهي في حقيقتها وثمارها دعوات ضد حرية المرأة، وضد المعنى الحقيقي للتقدم والمدنية، بل ضد إنسانية المرأة وكرامتها الأنثوية.

الخاتمة

إن الحديث في صفحاتٍ قليلة عن رجلٍ بلغ مكانةً سامية في الأدب والفكر لهو أمر صعب؛ لأن الحديث عن زاوية من منهج هذا الرجل أو عن فكره لهو أكبر من أن يتسع لمجلدٍ ضخم، فكيف ببحث بسيطٍ كهذا؟

لقد كانت حياة الشيخ محمد الغزالي مؤرّقة بهموم الأمة، وذلك أنه كان من أعظم رواد الصحوة الإسلامية في مصر والعالم العربي، وكان صاحب مدرسة فكرية كبيرة ومنهج واضح، حيث كان ينافح بالكلمة والبيان واللسان عن الإسلام ومصلحة الدعوة الإسلامية في العالم، للوقوف أمام التيارات المختلفة التي تجرف المسلمين إلى الوقوع في شراكها من التنصير والشيوعية والعلمانية.

لقد كان الشيخ محمد الغزالي ملماً بواقع الأمة الإسلامية معايشًا لنكباتها المتتالية، تنبض كلماته بمدى فجيعة الأمة في انهيار مجدها القائم على التمسك بالكتاب والسنة، وساهم الشيخ من خلال كتاباته في محاولته تغيير ذلك الواقع المرير ومحاولة تنبيه الأمة من غفلتها.

إن قوة الفكر الإصلاحي عند الشيخ، وقدرته هو على الوصول إلى رؤية فلسفية للحياة والوجود والإنسان والتاريخ تميزت بالتنسيقية الرائعة والتكامل بين وحداتها وعناصرها، كل هذا لم يكن من صنيع الصدفة، بل كان من إنتاج جملة من الظروف تضافرت أدوارها فأنتجت مفكراً مصلحاً، ومجدداً بارعاً، وداعية ناشطاً، فالإسلام والحضارة الغربية والفكر الغربي وواقع المسلمين الفاسد ومواهب الشيخ وطاقاته الإبداعية، هذه جميعاً صنعت هذا الداعية المصلح، وهذا الإصلاح والتجديد.

وبعد عرض ما تقدم نستطيع الخروج بنتائج كلية عامة عن المنهج الفكري للشيخ محمد الغزالي في الدعوة ومواجهة الأفكار الوافدة:

١ – التزام المنهج المعتمد على الكتاب والسنة، وهذا منهج السلف، ولا يمكن قراءة السنة أو فهمها إلا في ضوء ما يرتبط بها من آيات الكتاب الكريم.

٢- قراءة الوجود هو مصدر من مصادر المعرفة في الإسلام، لا يقل شأناً عن قراءة الوحي، فكلاهما من عند الله عز وجل، وكلاهما مأمور بالنظر والاعتبار فيه.

٣- فهم خصائص كلمة الله تعالى، وأنها عامة للبشر في كل زمان ومكان وشاملة لحياة الإنسان في المادة والروح والعقل، وتخاطب كل الأشخاص وكل المعتقدات.

٤- الاجتهاد إنما هو وليد التفاعل والتعامل مع الواقع، ولا يمكن أن يكون إلا بممارسة العمل في واقع الناس، وهذا ما جعل كثير من العلماء يظنون انغلاق باب الاجتهاد، حيث غاب التفاعل المؤثر واتخاذ القرار عن الواقع.

٥- تعاملَ الشيخ مع قضايا العصر تعامل المتفاعل مع الواقع، فيجهد في كثير من المسائل ويسمي ذلك الاجتهاد (مبدأ الحركة).

٦- يرى الشيخ أن الإيمان الحقيقي ليس هو الإيمان الجاف الخشيب الذي هو مجرّد عقيدة أو تصديق بسيط، بل هو مزيج من اعتقاد وحب، يملك على الإنسان قلبه ومشاعره، وعقله وتفكيره، وإرادته وتصرفه، وحبه وبغضه.

٧- الفكر الإسلامي عند الشيخ محمد الغزالي هو صنعة المسلمين العقلية في سبيل الإسلام وبمشورةٍ من مبادئ الإسلام، لذا فهو يختلف عن الإسلام بأنه مستحدث وغير معصوم، وكأن الفرق بينهما كالفرق بين ما لله وما للإنسان.

٨- كان المنعرج الأهم في تاريخ الفكر الإسلامي - برأي الشيخ - بنشوء التصوّف الفلسفي، والذي يُعدّ برأيه ترجمة للتنسك، فأصبحت أفعال الإنسان تُقاس بمقياسين، مرة بمقياس الأحكام الفقهية، ومرّة بمقياس التذوق والمحاسبة.

٩- يرى الشيخ أن الأخلاق عندنا تتصل اتصالاً وثيقاً بالإيمان، فإذا اهتزت العقيدة ظهر النقص واضطربت الأمة، وكي يعود سلطان الأخلاق إلى عرشه يجب أن يعود اليقين إلى الأفئدة.

١٠- يرى الشيخ أنَّ القرآن الكريم فيه كل ما يفتقد إليه العالم من طُهرٍ ورُشد، وهذا ما تفتقده الاشتراكية والشيوعية، وقد ظلَّ المسلمون بهذا القرآن أنضر أهل الأرض عيشاً، وأرقاهم فكراً.

١١- يرى الشيخ أن القرآن وضع الإنسان في المناخ العلمي والنفسي والأخلاقي الذي يتيح له التعامل الصحيح مع الحقائق العلمية والاجتماعية والكونية، ولقد انطلق المسلمون في العصور الأولى من القرآن الكريم فقادوا الحضارة.

١٢- ساهم الشيخ محمد الغزالي في إثارة النقاش حول مناهج فهم السنة النبوية، وكان له أثر كبير عند كثير من المسلمين الذين رُدّت إليهم حلاوة الإيمان بعد أن انزاح عن كاهلهم الأفهام المغلوطة والأحكام الصارمة التي لا أساس لها من سند أو دليل.

١٣- يرى الشيخ أنه ليس أمام الدعاة إلى الله إلا مسلكاً واحداً، وهو أن يُبرزوا الجوانب المستخفية من تعاليم الإسلام، حتى يستبين لكل ذي عينين أنه دين يجعل السيادة للأمة لا لفرد مُمَلَّك حمل على رأسه التاج.

١٤- تكلّم الشيخ في الأطر العامة والقضايا الاجتهادية والإصلاحية التي تهمّ كبار المصلحين، والتي تُمثّل ما يمكن أن نسميه السياسة العامة التي تستطيع معالجة الأوضاع، ومواجهة المشكلات الطارئة.

١٥- حرص الشيخ على إعطاء الدعوة مكانها الكريم، وحرص في الوقت نفسه على أن تكون وسائل الدعوة شريفة كالدعوة نفسها، فطبيعة ديننا ترفض أن يُتوصل إلى الغاية الكريمة بوسائل رديئة.

١٦- كان للشيخ طريقة مميزة في دراسة السيرة النبوية حاول أن يمزج فيها بين الكتاب والسنة الصحيحة والعقل الراشد، فجمع الشيخ بذلك بين طريقة القدامى الذين يعتمدون حشد الآثار وبين طريقة المؤرخين المحدثين الذين يميلون إلى التعليل والموازنة وربط الحوادث في سياق متماسك.

١٧- يتوجه الشيخ باللائمة على المؤرخين للسيرة النبوية الشريفة، وكذلك المؤرخين لكثير من الأحداث الهامة وأطوار الناس، حيث أن آفتهم هي قلة التثبت وضعف التمحيص، وقد وقع كثير من القدماء والمحدثين في هذا الخطأ على تفاوت بينهم في دقة المأخذ وحدة الانتباه.

١٨- يرى الشيخ أن بين الإفراط والتفريط خطٌ وسط يجب على المسلمين أن يتعرفوا عليه، وهو خط لا يتطابق مع وضع المرأة الإسلامية في أغلب المجتمعات، وكذلك لا يتطابق مع تقاليد الفرنجة التي تستمد من وثنية الرومان ومن فلسفة الإغريق، هذا هو الخط الأصلح الذي دعا إليه الإسلام في التعامل مع المرأة.

١٩- وقف الشيخ مع الأدلة التي تؤيد إنصاف المرأة ومساواتها بالرجل في الحق الإنساني العام، فوقف إلى جانب الرأي الفقهي الذي يرى أن دية المرأة مثل دية الرجل.

٢٠- تناول الشيخ محمد الغزالي الاستبداد السياسي بدراسة معاصرة جريئة، امتزجت بالأسانيد الشرعية والمرويات التاريخية، ووجّه صفعة شديدة للطغيان في وقت كان السجن والتنكيل مصير رائدي الأقلام الحرة والضمائر الصاحية.

المراجع

١- الاستعمار أحقاد وأطماع، محمد الغزالي، دار نهضة مصر، ط٤، ٢٠٠٥م.

٢- الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين، محمد الغزالي، دار نهضة مصر، ط٦، ٢٠٠٥م.

٣- الإسلام في مواجهة الزحف الأحمر، محمد الغزالي، دار نهضة مصر، ط١، د/ت.

٤- الإسلام والأوضاع الاقتصادية، محمد الغزالي، دار نهضة مصر بالقاهرة، ط٣، ٢٠٠٥م.

٥- تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، محمد الغزالي، ط٥، ١٤٢٤ه، ٢٠٠٣م.

٦- التعصّب والتسامح بين المسيحية والإسلام، محمد الغزالي، دار نهضة مصر، ط٦، ٢٠٠٥م.

٧- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه المعروف بـ (صحيح البخاري)، البخاري محمد بن اسماعيل، محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.

٨- جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج، محمد الغزالي، دار نهضة مصر، د/ط، ٢٠٠٥م.

٩- حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، محمد الغزالي، دار نهضة مصر، ط٤، ٢٠٠٥م.

١٠- خلق المسلم، محمد الغزالي، دار الريان، ط١، ١٤٠٨ه، ١٩٨٧م.

١١- الدعوة الإسلامية في القرن الحالي، محمد الغزالي، دار الشروق، ط١، ١٤٢١ه، ٢٠٠٠م.

١٢- سر تأخر العرب والمسلمين، محمد الغزالي، دار الصحوة بالقاهرة، ط١، ١٤٠٥ه، ١٩٨٥م.

١٣- سر تأخر العرب والمسلمين، محمد الغزالي، دار الصحوة للنشر بالقاهرة، ط١، ١٩٨٥م.

١٤- السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، محمد الغزالي، دار الشروق، ط٦، د/ت.

١٥- الشيخ محمد الغزالي تاريخه وجهوده وآراؤه، عويس (عبدالحليم)، دار القلم (دمشق)، د/ط.ت.

١٦- صور من حياة مجتهد عظيم، (دراسة حول العقيدة الإسلامية في فقه الشيخ الغزالي)، عزام (محفوظ)، دار الصحوة للنشر بالقاهرة، د/ط، ١٤١٣ه.

١٧- صيحة تحذير من دعاة التنصير، محمد الغزالي، دار الصحوة، ط١، ١٤١٢ه، ١٩٩١م.

١٨- الطريق من هنا، محمد الغزالي، دار الشروق، ط٣، ١٤١٢ه، ١٩٩٢م.

١٩- العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، فتحي ملكاوي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (الأردن)،

ط١، ١٤١٧ه، ١٩٩٦م.

٢٠- عقيدة المسلم، محمد الغزالي، دار نهضة مصر، ط٤، ٢٠٠٥م، ص١٣-١٥، ومحمد الغزالي، الشهادتان، دار نهضة مصر، ط١، د/ط.ت.

٢١- علل وأدوية، محمد الغزالي، دار الشروق، د/ط.ت.

٢٢- الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، محمد الغزالي، دار الشروق، ط١، ١٤١٨ه، ١٩٩٨م.

٢٣- الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، محمد الغزالي، دار الشروق، ط١، ١٤١٨ه، ١٩٩٨م.

٢٤- فقه السيرة، محمد الغزالي، دار القلم، (دمشق)، ط١، ١٤٢٧ه.

٢٥- في موكب الدعوة، محمد الغزالي، دار نهضة مصر، ط٤، ٢٠٠٥م.

٢٦- قذائف الحق، محمد الغزالي، دار نهضة مصر، ط١، ١٩٩١م.

٢٧- قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، محمد الغزالي، دار الشروق، ط٧، ١٤٢٢ه، ٢٠٠٢م.

٢٨- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علي بن حسام الدين المتقي الهندي، مؤسسة الرسالة، ط٥، ١٤٠١ه، ١٩٨١م.

٢٩- كيف نتعامل مع القرآن الكريم، محمد الغزالي، دار نهضة مصر، ط٧، ٢٠٠٥م.

٣٠- ليس من الإسلام، محمد الغزالي، دار القلم (دمشق)، ط٢، ١٤٢٦ه، ٢٠٠٥م.

٣١- المرأة في الإسلام، محمد الغزالي، مطبوعات أخبار اليوم، د/ط.ت.

٣٢- مستقبل الإسلام خارج أرضه كيف نفكر فيه، محمد الغزالي، دار الشروق، ط٢، ٢٠٠٣م.

٣٣- المسند، أبو يعلى أحمد بن علي الموصلي، ت: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث بدمشق، ط١، ١٤٠٤ه، ١٩٨٤م.

٣٤- المسند، أحمد بن حنبل، ت: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١ه، ٢٠٠١م.

٣٥- المصنف في الأحاديث والآثار، عبد الله بن محمد أبو بكر بن أبي شيبة، ت: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد بالرياض، ط١، ١٤٠٩.

٣٦- مع الله دراسات في الدعوة والدعاة، محمد الغزالي، دار نهضة مصر، ط٦، ٢٠٠٥م.

٣٧- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد أبو القاسم الطبراني، ت: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية بالقاهرة، ط٢، د/ت.

٣٨- معركة المصحف في العالم الإسلامي، محمد الغزالي، دار نهضة مصر، ط٥، ٢٠٠٥م.

٣٩- من مقالات الشيخ الغزالي، حسن (عبد الحميد حسانين)، دار نهضة مصر، ط٤، ٢٠٠٥م.

٤٠- هذا ديننا، محمد الغزالي، دار الشروق، ط٥، ١٤٢١ه، ١٩٩٦م.